
شذرات
من دين محمد
١
تأليف/ ابن العلي
الطبعة الأولى

شَذَرَاتٌ مِن دِين مُحمَّد

الجزء الأول (١)

تأليف

ابن العَلِيّ

الطبعة الأولى

لمراسلة المؤلف عبر البريد الإلكتروني:



ibnalali123@gmail.com

المحتويات

المقدمة

سَطَرْتُ في كتابي السابق «إدراك الوهم - تأملات في دين محمد»[1] تأملاتي ومطالعاتي الذاتية التي قادتني إلى إدراك حقيقة الإسلام، وأنه مجرد "كذبة" تَلقَّيناها على أنها حقيقة! وعلى الرغم من إدراكي لحقيقة هذا الدين، إلا أن تفكيري فيه وفي القضايا التي يطرحها والتأثيرات التي يصنعها لم ينقطع. والسبب في ذلك يعود لوجودي في بيئة إسلامية أشعر فيها دوماً بالمحاصرة والضيق[2]، كما أشعر فيها بالتهديد الذي يشكّله هذا الدين على وضعي المعيشي ومكانتي الاجتماعية بل وحتى على وجودي ذاته! يضاف إلى ذلك كون الدين يتحكم في غالب (أو ربما كل!) مناحي تلك البيئة بشكل مباشر أو غير مباشر، وبالتالي يكون للكثير من الحوادث أو المواقف التي تمر بي بُعداً دينياً يستثير ذهني ويجعلني أتأمله وأفكر في أسبابه ونتائجه.

لقد اخترتُ بعضاً من تلك التأملات والأفكار التي راودتني حول الإسلام، ودونتها في هذا الكتاب، والذي هو أول أجزاء سلسلة «الشذرات» التي أنوي نشرها تِبَاعاً. لقد حرصت في هذا الكتاب على عدم تكرار الموضوعات التي تناولتها في كتابي السابق. كما أني توسعت قليلاً في مناقشة بعض المواضيع واختصرت مع البعض الآخر. ولقد اجتهدت في ترتيب موضوعات الكتاب بحسب تقارب أفكارها ومجالاتها، إلا أن للقارئ عدم التقيد بهذا الترتيب، وقراءة فصول الكتاب بأي طريقة يريدها.

هذا، وإن الغرض الأساس من وضع الكتاب هو تعرية الأضرار التي تتسبب

---

(١) يمكن الحصول على نسخة من الكتاب بصيغة PDF بالنقر هنا على هذا الرابط.

(٢) بعض المسلمين قد يجد في مثل هذا الكلام دليلاً على صحة القرآن الذي يقول: وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ طه!

بها تشريعات الإسلام وأفكاره، وإيضاح مدى تهافتها، مع كسر هالة القداسة التي تحيط بها. كما أن من الأهداف حث الآخرين على إعمال عقولهم في الدين والتفكير فيه بطريقة نقدية. وأنا على يقين بوجود عقول ذكية سترى في الدين أبعد مما رأيتُ، وسَتَنْتَّقِدُهُ بأفضل مما انتقدتُّ. وإن كل ما تحتاجه تلك العقول هو التخلص من الخوف، والتحلي بالشجاعة، والتخفف من عبء التقديس.

وأخيراً، فلابد من التنبيه على أمر هام أثاره بعض قراء كتابي السابق، وهو عدم إيرادي لأدلة دينية (آيات وأحاديث) على بعض المسائل التي أنتقدها. وأنا أتفق بأن هذا قد يُعدُّ نقصاً أحياناً في تناول الموضوع، ولكني كنت قد أشرت في مقدمة الكتاب السابق، وأكرر الإشارة هنا، إلى أنني أفترض بالقارئ إلمامه بالمسائل الدينية التي أناقشها. وهذا الافتراض مبرر كوني أتناول في الغالب أموراً شائعة في الإسلام يعرفها غالبية من آمن بهذا الدين، مثل تعدد الزوجات والرق والتكفير والجهاد ونحوها. وعندما أشعر بأن الأمر ملتبس أو لا يعرفه الكثيرون، فإني حينها أورِد النصوص الشرعية التي تدلل على ما أذكره. وإني ألتمس العذر مقدماً من القارئ الكريم فيما لو وجدني أنتقد أمراً من الدين غير معروف عنده، وأطالبه في هذه الحالة بالبحث سريعاً في إحدى الموسوعات الإسلامية الميسرة أو كتب الفقه والعقيدة المختصرة أو حتى في «جوجل» عن ذلك التشريع الديني قبل الاستمرار في قراءة الكتاب، وذلك حتى يكون لديه إلمام كافٍ بالموضوع محل البحث.

المؤلِّف ،،

جدة – فبراير ٢٠٢٠م

دين الإله الحكيم

دعنا نفترض عزيزي القارئ أن ثَمَّة «إله» قادر وعالم وحكيم ورحيم قد خَلَقَنا على هذه الأرض. وأن هذا الإله أراد إعطاءنا ديناً نسير عليه في حياتنا، وأنه بعد ذلك سيحاسبنا على اتّباع ذلك الدين من عدمه. فما هي التشريعات والتعاليم التي من المفترض أن يحتويها هذا الدين بصفته دين من لدن هذا الإله؟ وما السبيل الأفضل لإبلاغنا به؟ لنحاول تلمس الإجابة على هذا الافتراض والأسئلة المتعلقة به فيما يلي[1]!

بما أن هذا الإله يَتَّصِفُ بالحكمة، فإن دينه سيهدف ولابد لإصلاح الفرد والمجتمع والوجود ككل. وبما أن هذا الإله قد خلقنا ومنحنا العقل والقدرة على الفعل والاختيار، فإن دينه يجب أن يحترم الخصائص التي أودعها فينا ويجعلها موضع اختبار، وإلا فإن تمتعنا بهذه الخصائص سيكون عبثياً. وهذه الخصائص هي أيضاً جزء من نِعَم الرب علينا، وبالتالي فإن استخدامها بالطريقة الصحيحة هو من شكر هذه النِّعَم! وعلى ضوء كل هذا، فإن دين الإله الحكيم سيحتوي على قواعد عامة نافعة، يمكن للبشرية اعتمادها ومن ثم البناء عليها. بحيث يستخدم البشر عقولهم وما حباهم الإله به لوضع التفاصيل التشريعية والتطبيقية لتلك القواعد، وفق احتياجاتهم في كل زمان ومكان. وهذا بخلاف الأديان السماوية التي نعرفها اليوم، والتي تضع للإنسان تشريعات تفصيلية ثابتة لا تحترم عقله ولا تتناسب بالضرورة مع ظروفه المتغيرة عبر الزمن. وعليه، فإن دين الإله المفترض يجب أن يكون مختصَراً ومقتصِراً على ركنين أو ثلاثة أساسية وعامة، مع ترك الحرية للإنسان للتقرير فيما عدى ذلك كما أشرنا آنفاً. فهذا مقتضى

(١) النقاش في هذا الفصل ليس من باب الدعوة للإيمان بالأديان والغيبيات بالطبع، ولكنه نقاش حول فكرة دين مقترح من أجل توضيح العيوب في الأديان المعروفة، وخصوصاً الإسلام.

الحكمة التي يتصف بها الإله.

الركن الأول من أركان الدين المفترض هو: «احترام الوجود وما فيه.» فالإنسان هو الكائن الوحيد المالك للعقل في بيئته، وهو بالتالي الكائن الوحيد القادر على كسر قوانين الوجود بإرادته الحُرة دون الخضوع لغريزة قاهرة. وهذه القدرة تُحمِّله مسؤولية أخلاقية، تُحتِّم عليه احترام الوجود وما فيه من بشر وحيوانات ونباتات وجمادات، وعدم إلحاق الضرر بهم دونما حاجة معيشية ضرورية. وهذا الاحترام للوجود سينتج عنه تهذيب أفكار الإنسان وأفعاله، حيث سيغرس فيه التواضع واحترام حقوق شركائه في الأرض. وهذا الاحترام للوجود سيُبعِد عنه أيضاً الطمع والأنانية، ويُرشّد استهلاكه لموارد الأرض، ويقلل من تلويثه للبيئة.

ومتى امتلك الإنسان حس المسؤولية تجاه الآخرين، أصبح بإمكانه وضع التشريعات التفصيلية لتطبيق ركن «احترام الوجود وما فيه» بحسب زمانه ومكانه، مع تقرير العقوبات الدنيوية المناسبة إذا لزم الأمر. والإله سينظر بعين حكمته وعلمه بعد الموت ويُقدّر للمحسنين الجزاء وللمسيئين العقوبة.

الركن الثاني هو: «تكريم الإنسان لنفسه.» بمعنى حث كل فرد على تقدير ذاته والوثوق بقدراته، وأنَّ باستطاعته إعمال عقله والإفادة من التجارب والخبرات المتراكمة لصنع عالم أفضل لنفسه ولمن حوله بل وللبشر أجمعين. وأن العقل الذي يملكه هو هدية الخالق[١] له، وهو جوهرته وقوته التي ستحقق له أمانيه إن استخدمه كما ينبغي، سواء في مجال التشريعات وسن القوانين أو في مجال العلوم وابتكار الجديد أو في مجال الفنون وإبداع الجميل.

إن حث الأفراد على احترام ذواتهم، والوثوق بأنفسهم وعقولهم وقدراتهم، سيكون من شأنه تقليل اتّباع الجموع للقادة الأفراد من رجال دين أو سياسيين،

(١) مازال الحديث هنا بشكل افتراضي بالطبع!

وهو الأمر الذي كان له آثار سيئة طوال تاريخ البشرية. وسيعزز احترام الذات مع استقلالية الأفراد، كما سيجعلهم أكثر حرية وكرامة وأقل تبعية وخضوعاً للمستبدين الظالمين والطغاة المعتدين. يُضاف إلى ذلك أن هذا التكريم الذاتي سيُسرِّع من تطور البشر وتَقدُّم العلوم، لأن عقول البشر حينها ستعمل بالتوازي، فَيَقِلُّ تقديم رأي أوحد أو فكرة واحدة على حساب طمس وتجاهل عقول الأغلبية.

الركن الثالث هو: «قصر الحساب بعد الموت على أعمال الدنيا فقط.» فالنعيم بعد الممات سيكون لمن عمل خيراً في الدنيا من أجل الدنيا، فأفاد به نفسه وغيره من البشر أو الموجودات. وسيكون جزاء العبد الصالح بعد الممات بحسب اختياره. فإن أراد العودة للحياة أرجعه الإله إليها في جسد جديد أو في أي كائن آخر يريده. وإن أراد البقاء كإدراك عاقل محض بلا كينونة ماديه، أبقاه الإله كذلك، يجول في الكون أو يقيم حيث يشاء، فتأتيه سعادته من زيادة إدراكه ومعارفه. ومتى شَعَرَ بأنه قد اكتفى وأن نعيمه في الفناء، أفناه الإله وكأنه لم يكن.

أما العقاب بعد الممات فسيكون على من عمل شراً أضر به غيره، ولم ينل عليه عقوبة عادلة في الدنيا. والعقاب هنا ليس عذاباً سادياً كما في الأديان البشرية التي نعرفها اليوم، وإنما يكون بإبقاء الإنسان ككيان عاقل مُدْرِك لامادّي، مع إنقاص حصته من النعيم، أو حرمانه من النعيم بالكلية، مع بث الحسرة والحزن وتأنيب الضمير في روعه إن لزم الأمر. ثم إنه يفنى بعد انقضاء عقوبته وينعدم من الوجود.

أما المظلومون والمحرومون والمقهورون والمرضى والمبْتَلَونَ فينالون من النعيم، أو يُخفف عنهم من العقاب، نضير ما أصابهم من شقاء وبلاء في الحياة الدنيا.

إن دين الإله المفترض هذا هو دين للبشرية جمعاء، لا يرتبط بمكان ولا زمان

ولا لغة ولا عرق. فهو لا يحتاج لرسول يُبَلِّغه، ولا لكتاب يحفظه، ولا لكاهن يُفسّره. بل الإله يُلقِي أركان هذا الدين في رَوْعِ كل مولود. فتكون تلك الأركان من نسيج الإنسان النفسي والعقلي، يدركها بَدَاهَةً، ويعرفها صوابها سَلِيقَةً. مع منح الإنسان الحرية كاملة في التقيّد بها والعمل وفق مقتضاها، أو مخالفتها وتكذيبها والعمل ضدها.

إن دين الإله الحكيم لا يحتاج لرسل ولا لأنبياء ولا لمبلِّغين. فالناس يعرفون بذواتهم ما عليهم فعله واجتنابه، وليس ثمة حاجة للإيمان بالإله أو الغيب أو ممارسة الطقوس عديمة المعنى والنفع. ومع هذا، فلا يمنع أن يظهر مُجَدِّدُون بين الفينة والأخرى، يحثون الناس على التمسك بما يشعرون بصوابه في دواخلهم. وهؤلاء المجددون سيظهرون كمصلحين اجتماعيين أو كفلاسفة أو علماء أو أدباء أو فنانين أو إعلاميين أو حتى حُكّام. وليس لِزاماً أن يؤمن هؤلاء المجددون بالدين أو الإله، فهذا ليس ضرورياً لصلاح الوجود. بل سيكونون دعاة بالقدوة، يتَمَثَّلُونَ أركان الدين النابعة من ذواتهم، ويعملون بها، ثم يجنون نتائج صنيعهم وفق قوانين الوجود الطبيعية، دون معجزات أو كرامات. فيرى الناس ذلك، فيُجَارُونَهُم في صنيعهم باستقلالية، وبدافع المصلحة الظاهرة، دون أن يكونوا تبعاً لهم أو عبيداً لأحد.

إن هذا الدين سيكون ديناً للبشر في هذه الحياة، ومن أجل هذه الحياة. هدفه الصلاح والإصلاح، وليس إشغال الناس بالآلهة والملائكة والجن والمعجزات وكل ما هو خارج إدراكهم. لا يوجد فيه طقوس ولا عبادات، فلا صلاة لإله، ولا ترديد لأذكار، ولا مجاهدة لكفار. إنه دين عملّي مرتبط بالعقل والواقع والتجربة والبرهان، يقطع الطريق على المخادعين والكاذبين، ولا يسمح لهم باستغلال الناس وابتزازهم بضعفهم أو مخاوفهم.

وعلى عكس ما نجده في الأديان البشرية من احتقار الإنسان ووصفه بالظلم

والجهل، فدين الإله المفترض يقوم على احترام الإنسان لذاته، وإيمانه بقدراته، وحثه على الاعتماد على نفسه، وتغيير حاله وما حوله للأفضل. كما لا يوجد في هذا الدين عقاب لمجرد الامتناع عن طاعة الإله وعدم التصديق بوجوده. وحتى لو نسب الإنسان أركان هذا الدين لغير الإله أو لم يعترف بوجود حساب بعد الممات، فلا ضير في ذلك، فغاية هذا الدين سامية تتجاوز المظاهر. المهم هو احترام الذات والوجود، وفعل الأصلح، وتقديم الأنفع، وكف الأذى. فمصير الإنسان في دين الإله الحكيم مرتبط فقط بطريقة تفاعله مع الوجود وما فيه، ولا علاقة للإيمان بالغيبيات أو تأدية الطقوس للآلهة بمصير الإنسان كما في الأديان البشرية المعروفة اليوم.



رهان باسكال للادينيين

من المعروف أن كثيراً مِن المؤمنين تنتابهم شكوك حول صِحّة دينهم الذي يؤمنون به. بل قد تكون شكوكهم مستمرة وقوية ولها وجاهة، ولكنهم مع هذا لا يتخلّون عن إيمانهم ويراهنون كما راهن الفيلسوف الفرنسي «بليز باسكال» في القرن السابع عشر، حينما قال بما معناه: إن كان ديني[1] صحيحاً فسأنجو، وإن لم يكن صحيحاً فلن أخسر شيئاً.

وبالطبع يمكن نقض رهان باسكال هذا بسهولة. فهو يفترض أن دينه أو إلهه هو الدين أو الإله الوحيد. وكأنه يقول: إن لم يكن ديني صحيحاً فليس ثمة دين غيره صحيح! ولكن ماذا لو كان هناك دين آخر صحيح غير دينه؟ حينها سيكون باسكال في ورطه، لأنه لم يؤمن بالدين الصحيح! وحتى يتجاوز باسكال هذه المعضلة، فإن عليه الإيمان بكل الأديان والآلهة في الوقت ذاته، وهذا مستحيل بالطبع!

ثم ماذا لو كان هناك إله يعاقب المؤمنين بالأديان؟ فيقول هذا الإله للمؤمنين: "ألم تدركوا مدى شرور الأديان ومناقضتها للعقل الذي أعطيتكم؟! لقد أسلمتم أنفسكم للشيطان، وأنتم الآن تستحقون العقوبة بما كسبت أيديكم!" حينها سيكون باسكال ومن معه في ورطة كبرى!

وأياً يكن مقدار تهافت رهان باسكال، إلا أنه يحظى بقبول عند الكثير من المؤمنين. ولكن ماذا عن غير المؤمنين؟ أليس من الممكن للإنسان اللاديني، الذي تنتابه الشكوك حول موقفه من الدين، أن يُطمئن نفسه بِرِهَانٍ مشابه؟ أي

---

(١) فضّلتُ استخدام لفظة الدين لتبسيط عرض الرهان هنا، عوضاً عن لفظة الإله التي وردت في نص باسكال الأصلي. وهذا تبسيط غير مُخِلّ، لأن إله باسكال يفرض عليه الإيمان بدين محدد.

بطريقة تشبه ما يمارسه المؤمن صاحب الشكوك؟ أرى أن ذلك ممكناً! بل إن رهان اللاديني قد يكون له مردود أفضل على الشخص نفسه وعلى مجتمعه وعلى العالم أجمع! والرهان الذي يمكن للاديني القيام به كالتالي:

١. سأفعلُ الخيرَ ولن أُؤذي الغير.

٢. إن كان ثمة إله خلقني، فلابد أن يكون عاقلاً وحكيماً.

٣. الإله لن يرسل ديناً تقليدياً يقوم على الإيمان بالغيبيات وبما لا يمكنني إدراكه، وذلك لأنه إله عاقل وحكيم.

٤. إن كان ذلك الإله سيحاسبني بعد الموت، فسيجازيني خيراً نظير الخير الذي فعلته والأذى الذي اجتنبته.

٥. إن لم يكن هناك إله يحاسبني بعد الموت، فلن أخسر شيئاً.

إن الإله الحكيم الذي يراهن عليه اللاديني هنا سيحاسِب الناس على أفعالهم في الدنيا، وليس على إيمانهم بغيبيات وماورائيات لا يمكن للعقل التيقن من وجودها فعلياً. وعليه، فإن اللاديني يمكنه استخدام نسخته الخاصة اللادينية من مراهنة باسكال، فإن كان هناك إله سيحاسبه بعد الموت فسينجو، وإن لم يكن هناك إله يحاسبه بعد الموت، فإنه قد كسب الدنيا ونفع الناس ولم يخسر شيئاً.

إن هذا الرهان اللاديني هو أفضل قطعاً من رهان باسكال الديني. فالرهان الديني يقوم على فكرة أنانية مفادها: لن أخسر في الآخرة. أما الرهان اللاديني فيقوم على فكرة خيّرة مفادها: لن أخسر في الدنيا.

إن الرهان الديني يجعل المؤمن يخسر في الدنيا حتماً! فهو سيعيش حياته كعبد، لا يمكنه التفكير أو التصرف بحرية، بل سيكون محاصَراً على الدوام بتعاليم وضوابط ضيقة لا يسعه الانعتاق منها. كما أن رهانه سيُحمِّل قلبه بكمية من الكراهية ضد غير المؤمنين، وقد تدعوه تلك الكراهية للاعتداء عليهم وقتالهم.

بالإضافة إلى أنه سيكون أسيراً للأساطير والخرافات، ويَبْعُد بالتالي عن العقلانية والمنطق والمنهج العلمي. كما أن رهان المؤمن يجعل الأديان القادمة من عمق التاريخ تستمر في الوجود، مما يعيق تطور البشرية ويجعلها أسيرة أفكارها البدائية. كما أنه يخنقها في منظومة متكلسة من الأنماط الأخلاقية والاجتماعية التي لا يمكن أن تتغير لأنها مرتبطة بنصوص وتعاليم دينية مقدسة وثابتة. وإن تغيرت تلك التعاليم فإنها تتغير ببطء وبثمن باهظ من العداوة والكراهية والانقسام والخلاف والخصومة، وقد يعظم ثمن التغيير حتى يصل إلى القتل والحروب والدمار.

أما الرهان اللاديني فإنه يزيل الحواجز من أمام العقل ويجعل الإنسان حراً وأخلاقياً أكثر، يسعى لفعل الخير وإرضاء نفسه ومن حوله، مع الحرص على عدم أذيتهم. فلا يوجد بحسب هذا الرهان إله يأمر بكراهية غير المؤمنين وممارسة التميز ضدهم، كما لا يوجد إله يأمره بالقتال والجهاد ضد من لا يؤمنون به! وهذا الرهان يتيح للاديني أيضاً مراجعة أفعاله ومبادئه فيما لو كانت معيبة أو تسبب الضرر. فهو يقبل النقد، كما أنه حر في تتبع المصلحة أينما وجدها وتطوير أفكاره وتشريعاته، بخلاف أصحاب رهان باسكال!



الديموقراطية الإلهية

يقول القرآن: لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ الأنبياء، ويقول أيضاً: وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ المؤمنون. فكم هو سخيف «دليل التمانع» هذا الذي يسوقه الإسلام هنا كبرهان على حتمية الإله الواحد!

تعطينا الجُمَل القرآنية السابقة تصوراً لطريقة تفكير كاتب (أو كَتَبَة) القرآن، وتأثير المحيط والثقافة السائدة عليه. فكشخص نشأ في القرون الوسطى، حيث كان الملوك والقياصرة والأكاسرة يحكمون الدول باستفراد مطلق، وأيضاً كشخص يؤسس لنظام حكم ثيوقراطي مستبد، فإنه كان يرى أن التفرّد بالسلطة هو الحل الوحيد لضمان الأمن واستتباب الأوضاع! إنه يضع لنا هنا مقدمة ليخلص منها إلى نتيجة. ولكن ماذا لو كانت تلك المقدمة خاطئة أصلاً؟ بالطبع ستكون النتيجة خاطئة، وسيكون القرآن مخطئاً تبعاً لذلك.

المقدمة التي يضعها القرآن لاحتمالية وجود أكثر من إله هي حتمية النزاع، وبالتالي خراب الكون، حيث يقول: لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا، أي لفسدتا السماء والأرض. ولكن من أين جاء القرآن بهذه الحتمية؟ لقد **قاس** حال الآلهة على حال البشر. ففي بيئة كاتب القرآن، لا يمكن توزيع السلطة على أكثر من شخص. ومتى ما وجِدَ زعيمان أو أكثر، فإنهم متنافسون بالضرورة، وسيحتدم الصراع المسلح بينهم حتماً، وسيدوم حتى يقضي أحدهم على البقية، ثم يتفرّد بالسلطة. وفي أثناء ذلك الصراع العسكري، سيموت الناس وتضيع الأموال وتُدمّر الممتلكات وتفسد البلاد. وما يحدث في عالم البشر، يحدث في عالم الآلهة كذلك. هذا هو القياس الذي بَنى عليه القرآن مقدمته والحتمية التي تضمنتها!

وبعد هذه المقدمة، يريدنا القرآن أن نخلص إلى النتيجة التالية: طالما أن الكون مستقر وليس بفاسد كما ترون، فهذا يعني أن حاكمه هو إله واحد فقط بالضرورة.

إن استدلال القرآن أعلاه لا يعدو عن كونه مغالطة منطقية متهافتة. فالقياس الذي بنى عليه مقدمته لا يصح، إذ لا يجوز وضع الآلهة العظيمة في موضع البشر القاصرين. فإن كان البشر في زمن محمد لم يملكوا الوعي والحكمة لتقدير عواقب صراعهم، وبالتالي لم يسعوا للتصالح أو لمشاركة الحكم، فإن هذا لا يعني أن الآلهة ستكون بذات قصورهم. فالأنانية وحرمان الآخرين والبطش بهم وسعي البعض للعلو على الآخرين كلها صفات بشرية، ناتجة عن ضيق تفكيرهم واعتلال أخلاقهم. كما أنها ناتجة عن التنافسية التي تفرضها محدودية البيئة التي يعيشون فيها وشح مواردها النسبي. بينما الآلهة لا تعاني من كل هذا، فليست أفكار الآلهة الحكيمة بمثل أفكار البشر القاصرين، وليست رحمة الآلهة الواسعة بمثل أخلاق البشر الضيقة. كما أن وجود الآلهة لا يشبه وجود البشر، ومفاهيمهم ليست كمفاهيم البشر. إذاً، فليس متوقعاً من الآلهة أن تَنْجَرَّ لصراعاتٍ مثل صراعات البشر، فلا المعطيات هي المعطيات ولا النتائج هي النتائج.

وحتى لو وجِدت بوادر صراع بين الآلهة، فإن الآلهة تتمتع بحكمة ورحمة تتجاوز ما لدى البشر، وبالتالي لن تنزلق إلى صراع مدمر، وستتمكن من حل خلافاتها بالطريقة التي تليق بعظمتها، وليس كبشرٍ متخلفين من العصور الوسطى!

ولو نظرنا بتمعُّنٍ أكبر، لوجدنا أن محاجحة القرآن في هذه المسألة لا تنفي احتمالية وجود الشريك لله، بل تؤكدها! فالقرآن يقول أن الكون صالح ومستتب بسبب عدم وجد صراع إلهي. هذا يعني أنه لا يوجد صراع **الآن**، ولكن لا ينفي حدوث صراع في الماضي، وأننا الآن نعيش في كون الإله المنتصر ربما!

هذا ممكن لأن القرآن لم يَنْفِ إمكانية وجود الإله الآخر أصلاً، وإنما قال: يوجد إله واحد ليس له منافس في الوقت الراهن، ولهذا الكون مستقر! وبهكذا حجة، فإن الباب مفتوح أيضاً أمام ظهور إله منافس للإله الحالي مستقبلاً!

لو أن القرآن علل وحدانية الإله، وعدم وجود شريك له، بسبب كونه إلهاً مطلقاً في كل شيء، لكان ذلك أكثر إقناعاً من القياس على صراعات البشر. فمع وجود إلهٍ مُطلقٍ مستحوذٍ على كل شيء ومستوعبٍ لكل شيء، فإنه من المستحيل حينها أن يشاركه شيء، إذ لا مجال ولا شاغر يمكن للإله المنافس أن يوجد فيه. إن فكرة الإله المطلق الكامل في صفاته وأفعاله موجودة في الإسلام، ولكن كاتب القرآن لم يفطن لاستخدامها هنا، أو ربما شعر أنها فكرة صعبة وستكون بالتالي غير مقنعة لمحدودي التفكير المحيطين بمحمد!

وعلى الرغم من تهافتها، إلا أن حُجَّة القرآن المبنية على القياس بما عند البشر بدت منطقية ومقنعة لمحمد ولصحابته ولكثير من المسلمين من بعدهم. والسبب يعود إلى كونها مُؤَيَّدَة بمشاهدات من واقعهم، أي يمكنهم استحضار ما يشبهها من بيئتهم قديماً وحديثاً. ولكن ماذا لو وُجِدَ محمد في أثينا اليونانية خلال القرن الخامس قبل الميلاد؟ هل سيكون لدليله القرآني وجاهة حينها؟ لقد عرف اليونانيون الديموقراطية قبل الإسلام بما يزيد عن الألف سنة. حيث طبقوها بنجاح حينها، وأنشأوا جمعية عمومية للتشاور وإصدار القوانين والأحكام بعد التداول، فاستتبت أمور الحكم في بلادهم لفترات طويلة، واختفى الاستبداد والصراع على السلطة، وترسَّخ حكم الشعب عبر التصويت المباشر. في تلك الفترة، كان اليونانيون يؤمنون باثني عشر إلهاً عظيماً يجتمعون أعلى جبل

أوليمبوس للتشاور وحكم العالم[١]. ولم يكن هذا مستغرباً عند اليونانيين، لأنهم كانوا يمارسون في واقعهم ما يشبه الديموقراطية الإلهية تلك! ولذا، فكما رفض المسلمون تعدد الآلهة قياساً على واقعهم، فإن اليونانيين، وقياساً على واقعهم أيضاً، قبلوا فكرة التعدد. ولو جاء محمد إلى اليونانيين، واستدل باستقرار الكون لنفي تعدد الآلهة، فإنه ما كان ليقنع أحداً أبداً!

حضارة أخرى أيضاً عرفت الديموقراطية وقبلت معها بتعدد الآلهة، وهي الحضارة الهندية القديمة. حيث تشير المصادر لوجود نُظُم حكم ديموقراطية في الهند وأقاليم السند وأفغانستان منذ ما قبل الميلاد بما يزيد عن ستة قرون. ونحن نعلم كيف شاعت هناك -ومازالت- الديانات التي تؤمن بتعدد الآلهة، أو لا تؤمن بأي آلهة ولكن لا تعارض فكرة وجودها بعيداً عن التفاعل المباشر مع البشر، كما هو الحال في البوذية.

وفي عصرنا الحاضر، يرى الناس نُظُمَ حكم ديموقراطية ناجحة في كثير من البلدان. حيث تتقاسم السلطات فيها قوى مختلفة، فهذا يتولى السلطة التنفيذية، والآخر يرأس السلطة التشريعية، وثالث يتسنّم السلطة القضائية. والجميع يديرون سلطاتهم بالشورى والتوافق، من غير استفراد ولا استبداد. وحتى عندما يتنافس الزعماء على الرئاسة، فإن تنافسهم يكون محكوماً بالقانون، ويقبل الأطراف جميعاً ما تسفر عنه العملية الديموقراطية. وتدور السلطات بينهم على مدى السنين، ولم يحدث فساد في البلد ولا حروب ولا صراع، ولم يذهب كل زعيم بما حكم، ولم يعلو بعضهم على بعض كما يقول القرآن. بل على العكس، فكثير من البلدان الديموقراطية اليوم هي دول قوية ومتقدمة ومرفهة، بعكس حال

(١) لم تكن صورة الآلهة اليونانية مطلقة الكمال كما في الإسلام، ولكن كان ثمة خلاف وصراع يحدث أحياناً بين الآلهة، بسبب اختلاف الآراء أيهما أصلح، وأيضاً للحد من تصرفات بعض الآلهة المتجاوزة للحدود.

البلـدان المحكومـة بسـلطة الفـرد المسـتبد، التـي يصورهـا القـرآن كصيغـة الحكـم الناجعـة الوحيـدة للكـون!

ومما سبق نرى أن للبيئة وللثقافة المحيطة تأثير على قناعات الناس وأديانهم. وكما كانت فكرة محمد عن التوحيد متوافقة من بيئته، كانت فكرة اليونانيين والهنود عن تعدد الآلهة متوافقة أيضاً من بيئتهم. ولو قلتَ اليوم لعربي: الآلهة متعددة؛ لقال لك: ولكنهم سيدمرون الوجود! ولو قلت لسويسري: التوحيد ضروري لكي لا تدمر الآلهة الوجود؛ لسألك مستنكراً: ولماذا يدمرونه؟!

معضلة الشر الإسلامية

معضلة الشر الشهيرة كما وضعها الفيلسوف الإغريقي «إبيقور» هي باختصار:

١. إذا وُجِد إله مُطْلَق القدرة والعلم والرحمة، فلن يوجد شر في الوجود (مثل الكوارث الطبيعية والأمراض).

٢. ولكن الشر موجود في الوجود.

٣. إذاً، لا يوجد إله كامل يجمع القدرة والعلم والرحمة في الآن ذاته. لأنه إن لم يكن يدري عن الشر فهو غير عالم، وإن كان يعلم وهو قادر على إنهاءه ولم يفعل فهو غير رحيم، وإن كان يريد إنهاءه ولم يستطع فهو غير قادر.

المسلمون عادة لا يجدون مشكلة في معضلة الشر هذه، لأنهم يعتقدون أن وجود الإنسان في هذه الدنيا هو لغرض الاختبار، كما يقول القرآن: الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٢﴾ الملك! وبالتالي، فما يصيب الإنسان في حياته من شرور ليس سوى ابتلاء يختبره الله به؛ فإن صبر اجتاز الاختبار، وإن لم يصبر فشل في الاختبار، وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ﴿٣٥﴾ الأنبياء. إذاً، لا يوجد شر محض بحسب العقيدة الإسلامية، وإنما مجرد بلاء طارئ في الدنيا لغرض الاختبار فقط.

يمكن الرد على هذا التبرير الإسلامي لوجود الشر بالقول أن الإنسان يعاني أصلاً بغير ابتلاء مباشر من الله. فالإنسان يلقى الشر من أخيه الإنسان بالظلم والقهر والإجرام والحروب وغير ذلك، كما يلقى الشقاء مضطراً لكسب قوته وتنشئة عياله وصيانة متاعه. فلماذا يزيد الله البلاء على الإنسان بلا سبب، فيصيبه بالكوارث الطبيعية والأمراض التي تُفقِره وتُقعِده وتُيتِّمه إلخ.؟ فشقاء الإنسان الاضطراري والشر الذي يلاقيه بإرادة أخيه الإنسان كافٍ للامتحان

والاختبار، خاصة إذا ما علمنا بأن الإنسان يقدر إلى حد ما على مواجهة هذه الشرور الإرادية، بينما هو عاجز (في أغلب تاريخه) عن مواجهة الشرور الإلهية. إن الإمعان في زيادة الشر على الإنسان تحت ذريعة الابتلاء والاختبار لا يعطي أي تبرير مقنع لمعضلة الشر، بل يزيدها عمقاً ويُظهر الإله أكثر شراً!

كما يمكن الرد على التبرير الإسلامي لمعضلة الشر بالسؤال عن الأذى الذي يلحق غير المكلَّفين. فإن كان الإنسان البالغ العاقل مكلّف وبالتالي يتم اختباره بحسب زعمهم، فما ذنب الأطفال والمجانين والحيوانات حتى تصيبهم الأمراض والكوارث والمظالم؟ لقد كان الأجدر بالإله الرحيم القادر كَفّ هذه الشرور عن هؤلاء المساكين الذين لا ذنب لهم!

المسلمون يَردُّون على مسألة الحيوانات بقولهم إن الله يبعثها يوم القيامة ثم يقضي بينها، بحيث يقتص للحيوان المظلوم من الحيوان الظالم، وبعد ذلك يفنيها جميعاً ويجعلها تراباً[١]. ولكن ثمة إشكالية هنا! فما هو تعويض الحيوانات التي لم يظلمها أقرانها، بل تعرضت للشر الطبيعي بسبب مرض أو كارثة؟ إن من العدل أن يقوم الإله بتنعيم هذه الحيوانات نظير ما أصابها، مثلما يفعل مع المؤمنين؛ خاصة إذا ما علمنا أن تعويض الإله الإسلامي للمؤمنين في الجنة هو تعويض حيواني في مجمله، يقوم على الأكل والشرب والراحة والجنس، وهذه مُتَعٌ تُحبها الحيوانات أيضاً!

أما الرد على مسألة الشر الذي يصيب الأطفال والمجانين، فالمسلمون مختلفون عليه. وجميع مبرراتهم يمكن نقضها بقليل من المنطق السليم. ويمكن

---

(١) ورد عن النبي محمد قوله: يقضي الله بين خلقه الجن والإنس والبهائم، وإنه ليقيد يومئذ الجماء من القرناء، حتى إذا لم يبق تبعة عند واحدة لأخرى قال الله: كونوا تراباً، فعند ذلك يقول الكافر: يا ليتني كنت تراباً. صححه الألباني.

مراجعة الرابط الموجود في الحاشية[1] لمعرفة ما يطرحه الإسلام في هذا المجال.

إن أعظم نعمة منحها الله للبشر -وفق العقيدة الإسلامية- هي نعمة الإسلام، حيث جاء في القرآن ما نصه: الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا ﴿٣﴾ المائدة. كما أن محمداً يدّعي أنه جاء رحمة للعالمين، وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾ الأنبياء. إذاً، فالإسلام نعمة ورحمة الإله للبشرية، لأن فيه صلاح الدنيا والآخرة كما يقولون. وبناءً على هذا الادّعاء، يكون حرمان الناس من الإسلام هو أعظم شر يمكن أن يحلّ بهم! وكثير من المسلمين عندما يرَون غير المؤمنين يحمدون الله على نعمة الإسلام ويشكرونه على عدم حرمانهم من هذا الدين! وهذا أمر عجيب لأن المسلمين هنا ينسبون الظلم لإلههم الذي يدّعون أنه عادل بالمطلق! فهذا الإله قد امتنّ عليهم حصراً بالإيمان وما يتبعه من صلاح الدنيا والنجاة في الآخرة (بزعمهم). وفي نفس الوقت، فإنه حَرَمَ بقية الخلق من هذا الخير، وجعلهم يعانون في هذه الدنيا بعيداً عن الدين، دون إبداء أي مبرر منطقي لهذا الحرمان! ولم يكتفِ هذا الإله بحرمان أكثر البشر من الدين ومنافعه (المزعومة)، بل إنه قد يعاقب المحرومين في الآخرة أيضاً! فأين الحكمة والرحمة في هذا؟!

المسلمون لا يكتفون بحمد ربهم على نعمة الإسلام، بل يحمدونه أيضاً عندما يرَون مشوهاً أو معاقاً أو مريضاً، فيقولون: "الحمد لله الذي عافانا مما ابتلاه به وفضلنا على كثير ممن خلق تفضيلاً." وهم هنا يعترفون بأن الله هو

(١) انظر: موقع الإسلام سؤال وجواب، مصير الأطفال الذين ماتوا صغاراً في الجنة أم في النار.

المتسبب في معاناة أولئك المصابين[1]! ولو سألناهم أين الحكمة والرحمة هنا؟ فسيجيبون كالتالي: إن الشر الذي وقع بهؤلاء هو من الاختبار، فإن صبروا وشكروا كان ذلك سبباً في تطهيرهم من الذنوب ورفع درجاتهم في الجنة. ولكن علينا سؤالهم حينها: وماذا عن المصابين والمرضى من غير المسلمين؟! فهؤلاء بحسب عقيدتكم لا يدخلون الجنة، ولا يتم تعويضهم عن البلاء الذي أصابهم حتى وإن صبروا! وبالطبع، فالمسلمون لا يقدمون إجابة مقنعة على هذا السؤال كما سنرى!

لقد تجاوز المسلمون معضلة الشر بفكرة الابتلاء والاختبار، بحيث يتم تعويض المُبْتَلَين الصابرين بالنعيم الأخروي. ولكن هذه الفكرة قاصرة وظالمة وأنانية لأنها تحصر التعويض في الآخرة على المؤمنين، وكأنه لا قيمة ولا أهمية لمعاناة غير المؤمنين! ولو سألنا المسلمين: ما ذنب غير المؤمنين المبتلين حتى يُحرَمون التعويض الأخروي؟ فسيقولون: لقد رفض غير المؤمنين الإسلام وبالتالي فشلوا في الاختبار، وعليه فهم لا يستحقون التعويض على ما أصابهم من ابتلاء، بل إن الله سيزيد عذابهم في الآخرة ويُدخلهم جهنم! ولكن ماذا عن الذين لم يُسلِموا لأسباب خارجة عن إرادتهم، مثل أهل الفترة قبل زمن محمد أو من لم تصله الدعوة لأسباب جغرافية أو لغوية أو سياسية؟ كيف سيتم التعامل مع الشرور التي أصابتهم في حياتهم؟ المسلمون لا يعرفون الإجابة بشكل دقيق على هذا السؤال، ويقولن هؤلاء أمرهم لله، قد يُجرِي لهم اختباراً خاصاً يوم القيامة، فإن اجتازوا ذلك الاختبار تم تعويضهم عن البلاء الذي أصابهم بالجنة وإلا فالنار مصيرهم!

(١) الله في الإسلام يُحقِّر أيضاً أصحاب الإعاقات، ويضرب بهم الأمثال على العيب والنقص، فيقول مثلاً: مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ هود، بل إنه يتمادى في جهله عندما يُحقّر أيضاً أصحاب البشرة السوداء فيجعل من سمات الكفار سواد الوجه يوم القيامة، فيقول: يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ آل عمران. فأي حكمة ينسبها هذا الإله لنفسه؟!

مما سبق نرى أن دين الإنسان يلعب دوراً رئيسياً في الرد على معضلة الشر في الإسلام. فإن كان الإنسان مسلماً، فإن الشر الذي يصيبه هو مجرد عارض طارئ في الدنيا وسيتم تعويضه في الآخرة. وإن لم يكن مسلماً، فإنه قد ارتكب أعظم الشرور، وأي مصيبة أصابته تأتي في درجة أدنى، ولذا فمصير هذا الإنسان هو النار على أية حال! وبناءً على هذا، يمكن استنباط معضلة للشر خاصة بالدين الإسلامي تكون كالتالي:

١. الشر في الدنيا طارئ وهو مجرد ابتلاء غرضه الاختبار، والله في الآخرة سيعوّض المصابين الصابرين شريطة أن يكونوا مسلمين.

٢. إذا وُجِد إله مطلق القدرة والعلم والرحمة، فسيجعل البشر جميعاً متساوين في قبول الإسلام ورفضه، وذلك لكي يكون تعويضهم عن الابتلاء عادلاً.

٣. ولكن البشر ليسوا متساوون في قبول الإسلام ورفضه (بسبب مكان أو زمان الولادة وتأثير الأبوين والنشأة والخلفية الثقافية واللغة والقدرات العقلية وغيرها)

٤. إذاً، لا يوجد إله مطلق القدرة والعلم والرحمة في الآن ذاته. فهذا الإله حتى وإن كان قادراً وعليماً، فإنه ليس رحيماً بخلقه كونه فضّل بعضهم على بعض، وحرَم بعضهم من النعيم الذي منحه للآخرين!

وبما أن أكبر نعمة امتن بها الله على الخلق هي نعمة الإسلام (بزعمهم)، وبما أن الإسلام يلعب دوراً رئيسياً في جزاء الإنسان في الآخرة، فإنه يمكن أيضاً صياغة معضلة الشر الإسلامية أعلاه بطريقة أخرى كالتالي:

١. إذا وُجِد إله مطلق القدرة والعلم والرحمة، فلن يحجب الإسلام (أعظم نعمة) عن البشر، وهي التي فيها صلاحهم في الدنيا ونجاتهم في الآخرة.

٢. ولكن هناك بشر قد حُجِبُوا عن نعمة الإسلام (لم يصلهم مثلاً، أو

وصلهم مشوهاً ولم يقبلوه، أو لم يفهموه بسبب حاجز اللغة، أو وجدوه غريباً على ثقافتهم، أو رفضوه بعدما رؤوا تطبيق المؤمنين له، وغير ذلك من الأسباب الوجيهة).

٣. إذاً لا يوجد إله مُطْلق القدرة والعلم والرحمة.

وفي الحقيقة، فالإسلام يعترف بأن إلهه «الله» غير مُطْلق الرحمة، وأن رحمته جزئية ومشروطة. حيث يقول القرآن بأن هذا الإله: يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ ﴿٧٤﴾ آل عمران. كما يقول في جملة أخرى: مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾ البقرة. فالله هنا يُنزّل رحمته على قسم من خلقه ويحرم جزءاً آخر منهم دونما سبب معقول. وفوق هذا، يقوم بتعذيب الذين حرمهم على شيء لم يقترفوه، بل هو كان السبب فيه!

يمكن رؤية مدى تهافت التبرير الإسلامي لمعضلة الشر الأصلية، وكيف أنه يطرح معضلة أخرى نظراً لقصور فكرة الابتلاء، وحصر التعويض على المؤمنين. ومع أن الإسلام يقرر بأن إلهه ليس مطلق الرحمة، إلا أن المسلمين يرفضون الاعتراف بهذا، ويصرّون على أن معضلة الشر لا تشكل أي تحدٍ لدينهم. بينما الحقيقة تخالف زعمهم، فالإسلام لا يقدّم حلاً منطقياً أو أخلاقياً لهذه المعضلة القديمة.

شريعة الانتقام

إذا افترضنا وجود الإله كما يصفه الإسلام، فإنه يجب أن يكون رحيماً بخلقه. فالإله غير الرحيم قد يعذب على أتفه الأسباب، وحينها ستتساوى نتائج عبادته وعدم عبادته. وعليه، فإن الإله غير الرحيم لا يستحق الطاعة. هذا الإله يجب أيضاً أن يكون حكيماً (ومن مقتضيات الحكمة العدل). فالإله غير الحكيم قد يظلم، فيعذب من يطيعه ويعفو عمن يعصيه. كما أن الإله غير الحكيم قد لا يُقدِّر ضعف الإنسان ونقصه، وقد يُشرّع لعباده أحكاماً تعود عليهم بالضرر والهلاك. وعليه، فالإله يجب أن يكون رحيماً وحكيماً ليكون مستحقاً للطاعة.

وبناءً على ما سبق، فلا يمكن قبول مبدأ الانتقام (مقابلة الإساءة بإساءة) كتشريع من الإله! فالانتقام مفهوم إنساني بحت، لا يليق بالإله الرحيم الحكيم. فالإنسان ينتقم بدافع العاطفة عندما يطغى غضبه على عقله. وقد ينتقم بدافع عقلاني، كأن يبرر الانتقام بالقصاص وردع الظالمين، ولكنه في هذه الحالة يحتكم للمصلحة قصيرة الأمد، ويكون عاجزاً عن إدراك عواقب فعله على الصعيد العام وفي المدى البعيد. وحتى لو اقتنع الإنسان بالانتقام من المذنب، فإن الإنسان العاقل لا يمكنه قبول الانتقام من البريء بجريرة ذنب غيره. أما الإله فمن المفترض أن يكون مدركاً تماماً لقصور وعجز الإنسان، فلا ينتقم منه ويعاقبه على ذلك القصور والعجز، ناهيك عن معاقبته على ذنب لم يقترفه!

ولكننا نجد الإله الإسلامي (الله) يمارس الانتقام، بل والانتقام من غير المذنبين حتى! مما يُظهر لنا بُعد هذا الإله عن الحكمة والرحمة، وبالتالي عدم استحقاقه للطاعة والعبادة. ومن الأمثلة على انتقامه وعدم عدله، قصة عذاب قوم النبي صالح (ثمود). فقد عاقبهم الله عقاباً جماعياً على أفعال قام بها بعضهم فقط. حيث قام "أشقاهم" وعقر "ناقة الله". حينها قرر الله الانتقام من الجميع!

وبعدها، فكّر تسعة أشخاص باغتيال صالح، فقام الله بتدميرهم وقومهم أجمعين، حيث قال متفاخراً: فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ النمل! فكيف يعاقب الله هؤلاء التسعة بالقتل على جريمة لم تقع؟ والأدهى من ذلك كيف يُهلِك القوم جميعاً بجريرة البعض؟! إذ لا ذنب مطلقاً للذين لم يقتلوا الناقة ولم يتآمروا كما أنه لا ذنب للأطفال مطلقاً، يقول القرآن عن ثمود: فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ النمل!

وهناك قصص مشابهة أخرى وردت في القرآن تحكي انتقام الله من القوم الكافرين، فيعاقب الجميع، بما فيهم الأطفال وفاقدي العقل، انتقاماً من فعل البعض! المشكلة أن بعض المسلمين ينتقد السلاح النووي لأنه أداة قتل جماعي لا تُفرِّق بين المذنب والبريء -وهم محقون في ذلك- ولكنهم لا ينتقدون إلههم الذي يزعم أنه يعاقب بطريقة أشد فتكاً! والمسلمون يفشلون أيضاً في رؤية التناقض بين معاقبة إلههم للكل بجريرة البعض وقوله في كتابه المزعوم: وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿١٥﴾ الإسراء!

ومما يزيد من إشكالية إله الإسلام، أنه لا يحتكر الانتقام والعقاب الجماعي لنفسه، بل يُشرِّع ذلك لعباده ويسمح لهم به! فعندما يقول هذا الإله: وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ﴿٣٦﴾ التوبة، فإنه يجعل كافة المشركين مذنبين في أعين عباده! أي أنه يُحمِّلهم جميعاً ذنباً لم يقترفه كلهم، فليس كل المشركين يقاتلون المسلمين! وبعد أن يُلصِق التهمة بالمشركين كافة، يؤجج رغبة الانتقام في أنفس عباده ويأمرهم بالقتال انتقاماً (كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً)! وانظر كيف يحرض المؤمنين على هذا الانتقام بكل وضوح وصفاقة في قوله: فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ

اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٤﴾ النساء[١].

وحتى لو قبلنا -جَدَلاً- مشروعية الانتقام من المشركين، وقتالهم بصفتهم معتدين أو تحت أي تبرير آخر، فما ذنب الأطفال والنساء والعجزة وكبار السن[٢] لكي ينتقم منهم المسلمون بأمر من الله؟ فهؤلاء لم يقرروا مقاتلة المسلمين ابتداءً، لأنهم بعيدون عن صنع القرار أصلاً. فكيف يقبل الإله الحكيم الرحيم قتالهم وإلحاق الضرر بهم؟! بل حتى إن قتل الجنود في الجيوش التي خرجت لقتال المسلمين لا يمكن قبوله كأمر من الإله الحكيم الرحيم. فمن المفترض أن الإله هو من خلق الجنود، وهو يعلم أنهم خرجوا حَمِيَّةً، أو دفاعاً عن بلدهم، أو بالأمر العسكري، وغالبهم لا يعرف عن الإسلام شيئاً. فكيف يسمح الإله بإزهاق أنفس هؤلاء الجنود انتقاماً، وترميل نساءهم وتيتيم أطفالهم، وليس هذا فقط، بل يُدخلهم النار أيضاً!

يمكن للمرء فهم فكرة القتال والقتل في الحروب من وجهة نظر الإنسان، ولكن لا يمكن فهم هذا من وجهة نظر الإله! فكيف يأمر الإله بعضاً من خلقه بقتل بعضاً من خلقه الآخرين؟! فمن المفترض أن جميع الخلق متساوون أمام الإله، وبالتالي، فعليه توفير ذات المعطيات والظروف للجميع، فهذا مقتضى الحكمة والرحمة. أما أن يُرسِل الإله رسولاً لبعض خلقه ويَحرِم الآخرين منه، ثم يُحَرِّش بين هؤلاء وهؤلاء، ويأمر هؤلاء بالانتقام من هؤلاء، فهذا ظلم وعبث لا يمت للرحمة والحكمة بِصلة! فلا العقل ولا الضمير يقبلان من الإله الانتقام من الناس والأمر بقتالهم قبل منحهم الفرصة كاملة لمعرفة دينه. وحتى بعد معرفة

(١) القتال هنا ليس ضد المعتدين كما يقول الإعتذاريون من المسلمين، بل قتال كافة المشركين في كل مكان: فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ﴿٥﴾ التوبة!

(٢) قتل نبي الإسلام في غزوة الطايف شيوخاً ونساءً وأطفالاً عندما قرر رميهم بالمنجنيق!

الناس للدين، لا يمكن قبول الأمر بقتالهم، فلربما أن عقولهم لم تقبل دينه، وهو من أعطاهم العقول، فكيف يعاقبهم على ما أعطاهم؟!

إن التحريش بين الناس، والأمر بالانتقام منهم وقتالهم على ذنوب وهمية، تُظهِر لنا بجلاء مدى بُعد إله الإسلام عن الرحمة والحكمة. فهذا الإله لا يتمتع بصفتي الحِلم والأناة مطلقاً! فهو لا يمنح "الكفار" فرصة للتراجع والإيمان، بل يلصق بهم التهم ويأمر عبيده بقتالهم انتقاماً على تلك التهم المزعومة! كما أنه لا يمنح الناس فرصة التعرّف على دينه بالقدوة والمثال. ولو أن أمته كانت فعلاً خير أمة أخرجت للناس، لكانت مضرب المثل للبشرية جمعاء، ولجَذَبَت إليها ولشريعتها كافة الأمم، ولَمَ كان للجهاد حاجة. فنحن نرى كيف تأخذ الأمم عن بعضها البعض، وكيف تثير الأمم الناجحة والمتقدِّمة فضول الناس وتدفعهم للتعرف عليها عن قرب وتقليدها. ولكن يبدو أن إله الإسلام يعلم أن أمته لن تُثِر فضول أحد، ولن تكن مثالاً ونموذجاً يُحتَذى، فقرر نشر دينه بالسيف!

لقد كان المفترض من الإله الحكيم الرحيم السعي إلى نشر السلام، وسن تشريعات ووسائل لتحقيق ذلك، وحث خلقه على عدم القتال، وإرشادهم لطرق أكثر حكمة لتسوية خلافاتهم وحل مشكلاتهم. كما كان من المفترض به رزق المحرومين حتى لا تشتعل أنفسهم بالطمع والغيرة مثلاً. وكان لزاماً عليه أيضاً تبرئة ساحته من سفك الدماء، وإعلان أن أي سفك للدماء هو تحت مسؤولية البشر، وأن الله ورسوله بريئان من ذلك. ولكن الله ورسوله لم يفعلا!

ترسيخ العادات السيئة

روى البخاري في صحيحه أن محمداً مَرَّ على نساء محتشدات لصلاة العيد وقال لهن: "يا معشر النساء تصدقن فإني رأيتكن أكثر أهل النار. فقلن: وبِمَ يا رسول الله؟ قال: تكثرن اللعن وتكفّرن العشير"! إن لهذا الحديث وأمثاله أثر سيئ على سلوك الناس وأخلاقهم. فهو يقرر مشكلة (اللعن وجحد فضل الزوج) ولكنه لا يضع علاجاً لها، بل يستغلّها ويطلب الصدقات! إن ما قام به محمد هنا هو في الحقيقة ترسيخ المشكلة، وتصويرها كصفة أصيلة في النساء لا يستطعن الانفكاك عنها. وكأنه يقول: لا جدوى من حث النساء على ترك اللعن وتكفير العشير، لأنهن لا يستطعن ذلك، ولذا فالحل هو حثهن على الصدقة ككفارة لذنوبهن!

تبرز من الحادثة عدة مشكلات أخلاقية. المشكلة الأولى هي الحكم العام على النساء (أو أكثرهن) بسوء الطبع والعشرة، وهذا غير صحيح كما يشهد الواقع والتجربة. فالكثير من النساء حسنات المعشر والمنطق، صبورات وودودات، يحتملن أزواجهن ويعينونهم على المضي سوياً في هذه الحياة وبناء الأسرة وتنشئة الأبناء. المشكلة الأخلاقية الثانية تكمن في الإيحاء للنساء بأنهن ولابد يتصفن بهذه الصفات السيئة، مما يجعل المرأة تتطبع بذلك وتستمرئه، حتى وإن كانت لا تتصف به حقيقة! فتقول لنفسها: الرسول، الذي لا ينطق عن الهوى، وصف النساء بذلك، ولذا فأنا ولابد أتصف بذلك! المشكلة الثالثة هي حث النساء بشكل غير مباشر على اللعن وتكفير العشير وعدم نهيهن عن ذلك. فقد تقول المرأة لنفسها: سألعن وأسيء عشرة زوجي، فأنا امرأة والجميع يتوقع مني ذلك، وحتى لا أدخل النار، فإني سأتصدق للتكفير عن ذنوبي تلك! المشكلة الرابعة هي تيئيس النساء من التخلي عن طبائعهن السيئة.

والآن لنحاول معرفة السبب الذي دفع محمد للإتيان بهذه الكارثة الأخلاقية! وبقليل من التفكير نعرف أن «الحلي والمجوهرات» كانت هي السبب! فمحمد قال هذا الحديث في يوم عيد، حيث خرجن النساء متزينات بحليّهن لصلاة العيد. فرأى محمد تلك الحلي وأراد الحصول على نصيب منها! فمر بالنساء وأمرهن بالتبرع بها تحت شعار "الصدقة" لكي لا يدخلن جهنم. وكما نعلم فلقد كانت الصدقات والزكوات تُجمع عنده وهو المسؤول عن توزيعها. لقد انشغل ذهن محمد بالحلي وانصبَّ اهتمامه عليها، لذا أمر النساء بالصدقة دون تقديم تبرير كافٍ لها، فقط قال أنتن أكثر أهل النار، فتصدقن! ولأن الأمر بدا مفاجئاً وصادماً للنساء، فقد سألنه: وما السبب الذي يجعلنا أكثر أهل النار؟! حينها ساق لهم محمد أول شيء خطر بباله عن النساء: "كثرة اللعن وتكفير العشير"! وهذا يشي بالصورة السيئة التي حملها محمد للمرأة في ذهنه!

لقد حكم محمد على النساء بهذه الصفات السيئة ورسَّخها فيهن فقط لأنه أراد مبرراً للحصول على حليهن! ولو كان محمد نبياً فعلاً[1]، لبدأ كلامه مع النساء بعرض المشكلة أولاً، فقال لهن: يا معشر النساء أنتن تكثرن اللعن وتكفرن العشير[2]. وبعد عرْض المشكلة، كان المستحسن به سماع جوابهن على هذه التهمة، أو على الأقل سماع تبريرهن لها. وبعد ذلك، يقوم بتوعية النساء ويعطيهن الحل الناجع لهذه المشكلة، فيُنهي وجودها أو يقلل منها ومن أضرارها. فلقد كان بإمكانه أن يقول للنساء مثلاً: اللعن لا يُفِدْكُنَّ بشيء بل يوغر الصدور عليكن فاجتنبوه، وإن أساء زوج إحداكن لها فلتتذكر جميل فعائله الماضية معها، ثم إني أوصى الزوجين بالإحسان لبعضهما والتغافل عن أخطاءهما العابرة حتى تستمر حياتهما، ونحو هذا.

(١) على افتراض وجود شيء اسمه النبوة أصلاً!

(٢) على افتراض أن هذه مشكلة واقعية فعلاً!

ولو قلنا أن محمداً لم يرغب بإطالة الكلام، فكان بإمكانه على الأقل وعد النساء بِجَنَّتِهِ الموهومة لو أنهن كففن عن اللعن وعن تكفير العشير، فهذا سيكون حلاً للمشكلة أفضل أخلاقياً من طلب الصدقة. فيقول لهن مثلاً:

- من أرادت النجاة بين يدي الله فلتمسك عن اللعن ولتذكر فضل زوجها؛ أو
- طوبى لمن اتّقت ربها وجاهدت نفسها وتركت ذلك؛ أو
- أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن صانت لسانها وحفظت حق زوجها.

ولكن هذا الكلام لن يجعله يحصل على الحُلي! ولذا نجده أمرهن بالصدقة، وألحق ذلك بالفزّاعة التقليدية التي يخوّف بها الناس دائماً: جهنم! وعندما سألنه النساء مستنكرات كثرتهن في جهنم، مع كونهن لا يقترفن أكثر الجرائم التي يقترفها الرجال مثل شن الحروب وقطع الطريق والقتال والسطو والاغتصاب إلخ.، قام محمد بتبرير ذلك بأسباب تافهة وغير حقيقية (اللعن وتكفير العشير)! ونظراً لطيبة النساء وانطلاء الخدعة عليهن، قمن يُلقِينَ حليهن في ثوب بلال، والذي كان قد بسطه على الأرض لجمع التبرعات[1]. وبعد أن ألقت النساء ما كان معهن من حلي ومجوهرات، لف بلال ثوبه بما حواه وحمله إلى محمد!

إن ترسيخ الإسلام للعادات والطبائع السيئة وعدم تقديم حلول ناجعة لها لا ينحصر في الحديث السابق، بل هو سمة من سمات هذا الدين. فالإسلام يستخدم التهديد بالعذاب الأخروي بصفة رئيسية للقضاء على ما يعتبره فساداً وأفعالاً مشينة، كما أنه يجعل التوبة من تلك الأعمال موجهاً لله بصفة رئيسة. ومن جهة أخرى، فإن الإسلام يعتبر المسلم الفاسد أفضل من الكافر الصالح! وهذا يصنع معياراً مختلاً عند المؤمنين، فنجدهم يضعون المسلم مهما كان سوءه فوق الكافر وإن كان فاعلاً للخير ونافعاً للناس!

(١) انظر: صحيح مسلم، كتاب صلاة العيدين.

ولو نظرنا من زاوية عملية، فإننا نجد الدين متسامحاً عملياً مع كثير من مظاهر الفساد، ويكتفي بتهديد فاعليها بالعقاب الأخروي مع حثهم على التوبة فقط. بل إن الدين يجعل الفاسدين تحت مظلته، فهو من يحدد الفساد وطريقة التعامل مع الفاسدين. فالتوبة من الفساد تكون في المقام الأول موجهة للإله وليس للناس، وله -أي الإله- قبول تلك التوبة من عدمها، أما قبول الناس فليس بتلك الأهمية.

الدين يضع أيضاً وزناً أكبر للفساد الشخصي على حساب الفساد العام. فهو يتعامل مع فساد المسؤولين العموميين بمجرد خطاب وعظي يحذرهم فيه من العقاب بعد الموت، أما في الدنيا، فإن "ولي الأمر" هو الخصم والحكم! فلا تشريعات محددة تحدد طريقة الرقابة الشعبية أو المحاسبة أو المعارضة أو العزل، وكأن هذه الأمور لا تحتاجها المجتمعات! بينما في الحقيقة أن هذه التشريعات هي ما كان سيحارب الفساد ويصنع مجتمعات راقية.

وفي المقابل نجد الدين يعادي المفكرين الأحرار ويسميهم زنادقة، ويعادي المعارضين السياسيين لسلطته ويسميهم منافقين، بل ويعتبرهم فاسدين مفسدين كما في قوله: أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ البقرة. كما ويحشد الناس ضدهم، ويطلق يد "ولاة الأمر" في جهادهم ومعاقبتهم، مع لعنهم وتوعّدهم بالعذاب بعد الموت، يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴿٧٣﴾ التوبة. أما الفاسدون الحقيقيون الذين يسيئون استخدام السلطة أو يستحوذون على مقدرات الشعوب فهم موعودون بالجنة في نهاية المطاف[1] حتى وإن لم يتوبوا عن فسادهم في الدنيا، فقط لأنهم يؤمنون بنبوّة محمد وإلهه الخيالي!

(١) قال ابن عثيمين: عصاة المسلمين ثلاثة أقسام: قسم يغفر الله له ولا يدخل النار أصلاً، وقسم آخر يدخل النار ويعذب بقدر ذنوبه ثم يخرج، وقسم ثالث يدخل النار ويعذب ولكن يكون له الشفاعة، فيخرج من النار قبل أن يستكمل ما يستحقه من العذاب. المصدر: فتاوى نور على الدرب (٤/٢) المكتبة الشاملة

وقد يكون من الملائم هنا ذكر مثال على طريقة الإسلام في التعامل مع الفساد العام، وهو مثال لا يمكنني وصفه إلا بأنه مضحك ومحزن في آن واحد! فبعد أن حامت الشبهات حول أخذ محمد لقماش قطيفة حمراء قبل قسمة غنائم معركة بدر، أنزل "الله" هذه الآية لتبرئته: وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ آل عمران. فانظر أولاً على ماذا اختصموا؟ على غنيمة حرب! ولشدة تعلّق أنفسهم بهذه الأموال الملطخة بالدماء، اتهموا حتى نبيهم بأخذ قطعة قماش منها! وعندما لم يجد النبي ما يدافع به عن نفسه، لجأ لجبريل! فادّعى أنه جاء ببراءته من فوق سبع سماوات، وتلا عليهم الآية أعلاه! لقد وضع محمد، بصفته ولي أمر، نفسه فوق الشبهة وفوق القانون، وجعل الله فقط هو القادر على محاسبته، ليس في الدنيا وإنما في اليوم الموهوم! المشكلة أن هذه القطيفة الحمراء ظهرت فيما بعد عند محمد، بل إنها وُضِعَت معه في القبر لشدة حبه لها[1]!

ومع المعالجة الرخوة للفساد العام، نجد الإسلام أكثر تشدداً وعنفاً مع ما يعتبره فساداً شخصياً. فهو يقمع حريات الناس الخاصة تحت مسميات وذرائع كثيرة، فحرية الاعتقاد يعتبرها كفراً أو شركاً، وحرية النقد يعتبرها محاربة لله ورسوله إن كانت موجهة ضد الدين أو خروجاً على ولي الأمر إن كانت موجهة ضد الحاكم، وحرية العلاقات الإنسانية يعتبرها عهراً أو موالاة لأعداء الله، وحرية الأكل والشرب يعتبرها معصية لله، إلخ.! كما أنه يسن عقوبات محددة لهذا الفساد المزعوم، عقوبات من قبيل القتل وقطع الأيدي والأرجل والصلب والجلد!!

إن الإسلام عملياً يُرسخ العادات السيئة ويوطّن الفساد، وإن ادّعى خلاف ذلك وتشدّق أتباعه بالشعارات الجوفاء. والسبب يرجع لعيب بُنْيَوي في طريقة

(١) ورد في رواية ابن ماجه وغيره: وكان شقران مولاه أخذ قطيفة حمراء كان النبي يلبسها، ففرشها في القبر، وقال: والله لا يلبسها أحدٌ بعدك أبدًا؛ فدُفنت مع رسول الله.

معالجة الإسلام لما يعتبره سيئاً وفاسداً. فهو لا يعالج أصل الإشكال، بل يقترح أسلوب الكفارة، أو يُعلّق الأمر بالتوبة لإله مُتَخَفٍّ في السماء لا سلطة له ولا تفاعل مع الواقع. كما يؤجل كثير من الحساب إلى ما بعد الموت، وينزع حق المحاسبة والرقابة العامة من أيدي الناس في هذه الحياة. ومن لا يقتنع بترسيخ الإسلام للسوء والفساد، فعليه فقط قراءة تاريخ الماضي والنظر إلى المسلمين في الحاضر، ليرى الدليل العملي والواقعي بأم عينيه![1]

(١) عندما تواجه المسلمين بتاريخهم أو واقعهم، فإنهم يقولون: لا تجعل المسلمين حَكَمَاً على الإسلام! ولا أدري كيف يجدون هذا التبرير مقبولاً للدفاع عن الدين؟! فهم يَدَّعون أن الدين جاء لإصلاح الناس وواقعهم، ثم لا يعترفون بفشله في مهمته هذه!

شرنقة الإسلام

يسيطر الإسلام على ضمير المؤمن وعقله من الداخل. حيث تستغل العقيدة رغبات الإنسان وأيضاً مخاوفه من مصيره المحتوم، فتقوم بتسييره كيفما تريد مستخدمة العصا والجزرة: لك النعيم إن استجبت وعليك العذاب إن رفضت. ونتيجة لذلك، حُرِمَ المؤمنون من حرية الاختيار، حيث وضعت العقيدة لهم محددات تتعلق بالمصير النهائي، والأسئلة الوجودية، والحب والكره، والولاء والعداء، والطموح والرغبات، وغير ذلك مما يعتمل داخل نفس الإنسان.

وبالسيطرة على ضمير الإنسان ومشاعره، أصبحت السيطرة على عقله تحصيل حاصل! فغدا الإسلام عند المؤمنين هو المرجع لكل شيء، في المعارف والعلوم والأخلاق والفلسفة وحتى اللغة! وبذلك، قمع الإسلام حرية التفكير وهيمن على العلوم، حيث وضع معارفاً لا يستطيع المؤمنون نقدها أو تجاوزها، وذلك في مجالات متعددة كالاجتماع والاقتصاد والتاريخ والأحياء والفلك والجيولوجيا وغيرها.

وبالإضافة للسيطرة من الداخل، يسيطر الإسلام أيضاً على الفضاءات المحيطة بالإنسان من الخارج. فعلى صعيد الفضاء الشخصي، ينشغل المؤمن طوال الوقت بصلوات وأذكار وأفعال ترافقه ليلاً ونهاراً. كما يحدد له الدين تفضيلات متعلقة باللباس والطعام والكلام وغيرها من سلوكيات يومية. وبهذا يكون الإسلام حاضراً في ذهن المؤمن ومسيطراً عليه على الدوام. أما في الفضاء الاجتماعي، فالإسلام لا يعترف بالحرية الشخصية، ويسمح للعائلة وللمجتمع وحتى للسلطة بانتهاكها تحت شعارات كثيرة، مثل طاعة الوالدين أو الأمر بالمعروف أو النهي عن المنكر أو إقامة حدود الله. كما أن الدين يحدد سلوكيات عامة، ويجعل المفاضلة تتم بين الناس على أساسها، بحيث تزيد مكانة الإنسان في المجتمع إن هو التزم بما حدده الإسلام، ويتردى في السُّلَّمِ الاجتماعي إن هو خالف تلك

المحددات أو لم يتقيد بها.

أما على صعيد الفضاء العام، فمتى ما تمكن الإسلام من الحكم فإنه يسيطر تماماً على شؤون السياسة والتشريع والاقتصاد والتعليم وغيرها، ويسن تشريعات تحمي وجوده وتُقصِي مخالفيه. فهو يمنع الناس من انتقاد تشريعاته ورموزه علانية، ويوقع العقوبات على من يتجرأ على ذلك، مثل عقوبة محاربة الله ورسوله، والاستهزاء بالله ورسوله، وتفريق جماعة المسلمين. وهذه العقوبات قد تأخذ طابعاً إجرامياً عنيفاً مثل الجلد أو قطع الأطراف أو القتل مع الصلب! الإسلام يُنزِل أيضاً حد الردة (القتل) بمن يعلن جحود الدين ويصر على موقفه، بل ويُلحِق الأذى الاقتصادي والاجتماعي بعائلته وأقاربه! والهدف من كل ذلك هو إبقاء الناس داخل شرنقة الدين المظلمة والضيقة، ومنع أي أفكار مضادة من التسلل إليهم وتبصيرهم بمدى الخداع والتضييق المُمَارس عليهم.

لقد رضخ كثير من المسلمين للإسلام تماماً، ولا عجب، فمصطلح «الإسلام» ذاته يعني «الاستسلام والانقياد»! وفي سلوك انهزامي أقرب ما يكون بالمازوخية[١] والتلذذ بالعذاب، غدت شرنقة الإسلام الضيقة هي غاية المُنى عند كثير من المسلمين، يريدون فقط المكوث داخلها وعدم الخروج منها أبداً! إنهم يرددون بسعادة حديث نبيهم محمد: الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر؛ رواه مسلم!

لم يسمح كثير من المسلمين لأنفسهم بالنظر بعين فاحصة ومحايدة خارج شرنقة الدين، بل صَبُّوا جل اهتمامهم وجهدهم من أجل الدخول في تلك الشرنقة الضيقة والبقاء داخلها. إنهم لم يسألوا أنفسهم عن الحلول التي يقدمها الدين ومدى ناجعتها، وتبعاً لذلك، فلم يفكروا في نُظُمٍ بديلة. فكانت النتيجة أنهم تخلفوا عن ركب الحضارة وأصبح كل ما لديهم مجموعة من الأفكار البالية القادمة

(١) انظر: اضطراب الشخصية المازوخية على ويكيبيديا.

من قرون الظلام.

وحينما أدرك بعضهم فداحة ما هم عليه، ذهب يتلمس ما عند الآخرين من أنظمة وأفكار، يأخذ من هنا وهناك في غير ما اتساق وتكامل، وإنما باستعجال وعشوائية. فنقلوا عن الرأسمالية والشيوعية ونادوا بأفكار الليبرالية والعلمانية وغيرها، ولكنهم فشلوا. لأن تلك الأفكار والنظم بدت غريبة على المجتمع، وغير متسقة مع أفكار الناس. فتسببت بالصراع والعداوة، وكأنه لا تكفينا صراعات مذاهب الدين وطوائفه حتى نأتي بغيرها إلى الحلبة! فمن كان السبب في كل هذا؟ إنه الإسلام بالطبع، حيث منع العلماء والمثقفين طوال قرون من ابتكار وتطوير أنظمة بديلة في السياسة والاجتماع والاقتصاد. ولو أن الإسلام لم يمنع من ذلك، لكان لدينا اليوم أنظمتنا الخاصة التي تماثل أو تتفوق ربما على ما عند غيرنا من الأمم. ولكان الناس راضون بتلك الأنظمة البديلة، لأنها ستكون حينها نتاج حضارتهم، نمت معهم بالتدريج وتطورت، وتوافقت مع أحلامهم ورغباتهم، وفهموا هم دوافعها وأهدافها.



الدين الزجاجي

يدّعي الإسلام أنه دين كامل تماماً لأنه من لدن إله مطلق الكمال، يستحيل منه الخطأ والنقص. يقول إله الإسلام الكامل هذا في القرآن المنسوب إليه: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَامَ دِينًا﴾ المائدة. كما يقول عن القرآن: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ البقرة، ويقول عنه أيضاً: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ فصلت.

هذا الترسيخ لكمال الإسلام المطلق يجعل نقض هذا الدين أمراً سهلاً ويسيراً! فالكامل لا يقبل النقص أو العيب. وعليه، فمتى ثبت لدى المؤمن نقصاً واحداً أو عيباً واحداً في الإسلام، فمن المفترض أن يُعَدُّ هذا دليلاً كافياً على عدم كمال الإسلام، وبالتالي عدم صحته. هذا يجعل الإسلام هنا يشبه الزجاج المقوى (سيكوريت)، فهو لا يقبل أي ندبة أو شق مهما صغرا. وكل ما نحتاج لتحطيمه بالكامل هو فقط ندبة واحدة أو شق صغير يصيبه!

ولكن لأن الواقع في الغالب يختلف عن التنظير، فالمؤمن عادةً لا يكفيه عيب واحد أو نقص واحد حتى يكتشف زيف دينه. والسبب في ذلك يعود لاستخدامه «عقله التبريري» لمجابهة أي نقص أو عيب يَعْرُض له في الدين، ودافعه في هذا هو التقديس والخوف من العذاب. لذا، فالمؤمن يحتاج لتراكمات من النقد الديني الذي يعطيه جرعات من الأخطاء والنقوصات، حتى يصل في النهاية إلى مرحلة يعجز أو يملّ فيها من التبرير، ويعترف بأن هناك مشكلة حقيقية في عقيدته. وبعد ذلك، يكون ترك الدين مسألة وقت فقط. وهذا يجعل الإسلام هنا يشبه الزجاج العادي الذي قد تصيبه الندبات والتشققات ولكنه يظل متماسكاً إلى حد ما. ولكن عندما يصل عدد أو حجم التصدعات إلى حد معين، يفقد الزجاج تماسكه وينهار بالكلية!

ما بعد الموت

"يا أيتها الحياة القابعة خلف أستار الموت! لقد غدوتِ الترياقَ لكل قلبٍ كسير، والخلاص لكل عقلٍ أسير، والشفاء لكل بَدَنٍ عليل. فيكِ سيقتص المظلومون من الظالمين، وينتقم المغلوبون من الغالبين. فيكِ سيضحك كل باكٍ، وسيَسعَد كل مكلوم، وسيهنأ كل مضيوم. سيحظى بين رحابِك المحرومون بما تمنّوه، وسيَستردُّ فيك المسلوبون ما سُلِبُوه. يا أيتها الحياة بعد الممات، لقد أضحيتِ موطن الأحلام المؤجلة والرغبات المستحيلة!"
– من وحي الأمل الخادع!

مما يميز الأديان عن غيرها من الأيديولوجيات هو تجرؤها على تقديم إجابات لأسئلة الإنسان الوجودية. ومن تلك الأسئلة سؤالنا عمّا بعد الموت. لقد أعطتنا الأديان أجوبة ومعلومات تُبَيّن ما سيحصل لنا حينئذ، ولكنها لم تمنحنا الوسيلة للتحقق من صحة ما زودتنا به! ولو أن الأديان زودتنا بالمعلومات والتزمت الحياد، فلربما كان لما قدمته مصداقية أكبر. ولكن الأديان لم تفعل ذلك، بل أعطتنا معلومات لما سيحدث بعد الموت، ثم ربطت مصيرنا بمدى تصديقنا لها! وهذا يعني أن الأديان قد استغلت جهل الإنسان وعجزه في هذا المجال، وخوفه الفطري من المجهول، من أجل الاستحواذ عليه وتجنيده ضمن صفوفها. وكأن الأمر برمته مجرد منافسة بين أيديولوجيات مختلفة، يسعى فيها كل طرف لزيادة أعداد المنتمين إليه، ولا علاقة للأمر فعلياً بخلاص الإنسان الأبدي كما تدّعي الأديان!

وفي ظل غياب الأدلة، فإن الروايات الدينية لما بعد الموت ليست في الحقيقة سوى خيالات وظنون نشأت في أذهان البعض خلال حُقَب تاريخية مختلفة. وهذه الخيالات والظنون ليست مُستَمْرَءة أو مُعْتَسَفة اعْتِسَافاً في الغالب. فهي لا تشبه ما يجول في رؤوس الأدباء حينما يكتبون رواياتهم ومسرحياتهم مثلاً،

بل تشبه الخيال الذي يجول في ذهن كل فرد منا تقريباً حينما يفكر في نفسه مستقبلاً. وهو ما يمكن وصفه بالتفكير الرغبوي، المشتمل على تصور مستقبلي شبه عقلاني، يرى فيه الإنسان حالته في قادم الزمان، كأن يرى نفسه رب أسرة أو صاحب مال أو أنه قد انتقل للعيش في بلد آخر ونحو ذلك. وهذا التصور يكون نابعاً من ذات الإنسان عادة وليس مكتسباً عبر التلقين. كما أنه يكون مستوحى من تجربة الإنسان خلال مسيرة حياته، ومن رغباته غير المحققة.

ومثلما يحلم الفقير بالمال والعقيم بالذرية، فإن المظلوم سيحلم بالإنصاف والحزين سيحلم بالسعادة والخائف سيحلم بالأمان. ولكون الحياة وظروفها لا تسمح دائماً بتحقيق هذه الأحلام والرغبات، فإن الإنسان وجد في مجهولية الموت ملاذاً ومستوعَباً لحمل كل تلك الرغبات والأماني. فالإنسان لا يريد فقد الأمل في هذه الحياة القاسية. وللهروب من فقدان الأمل ومن قسوة الحياة، ألقى الإنسانُ بكل ما لا يستطيع تحقيقه في ثقب ما بعد الموت الأسود، وغدا يُمنّي نفسه بأن ما ألقاه هناك سيجد طريقه للتحقق في عالم ما بعد الموت المثالي الذي رسمه في خياله! هناك في أوتوبيا ما بعد الموت، سيلقى المظلومون العدل وسيلقى المحرومون العطاء وسيلقى التعساء السعادة. إنه مجرد تعويض نفسي وتفكير رغبوي بحت، ولكن ولشدة حاجة الأنفس المتعبة إليه، أصبح حقيقة تفوق في قوتها حقيقة الحياة ذاتها! نعم، الآخرة عند المؤمنين بها هي الحياة الحقيقة أما الدنيا فليست سوى متاع الغرور، وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ العنكبوت!

وبالإضافة للأحلام والرغبات، فإن من المصادر التي تستقي منها الأديان وصف بعد الموت هو ما يُخبِر به البعض عن ما شاهدوه خلال حالات الغيبوبة طويلة الأمد التي مرُّوا بها، أو تجاربهم مع ما يُسمى بالاقتراب من الموت

أو الإسقاط النجمي[1]. وبما أن الناس يُخبِرون بعضهم بعضاً بتجاربهم تلك، فقد تنتشر بعض تلك الحكاوي بين الناس وتصبح من المعارف الشعبية التي يتناقلونها عبر الأجيال، فيتبنّاها صُنّاع الأديان بعد ذلك ويضيفون عليها ويُلحِقونها بأديانهم.

وأمام ضعف الإنسان وحاجته للتعلق بأهداب الأمل، جاءت الأديان واستغلت ذلك الضعف وتلك الحاجة. حيث جعلت الثواب والعقاب بعد الموت متعلقاً باتِّباعها من عدمه. فلم يعد الأمر متعلقاً بحياة يقام فيها العدل، بل أصبح الأمر متعلقاً بمنح الجوائز لمن اتّبع الدين، وحرمان من امتنع عن ذلك. لقد تم استغلال حلم الإنسان وتطلعه للعدالة من أجل سلب حريته وجعله مجرد تابع للدين ولمن بيده أمر الدين. فيا لها من جريمة في حق الإنسان أدت لزيادة قسوة الحياة عليه بدلاً من رفع بعض عناءها عنه!

لقد بدأت فكرة ما بعد الموت كفكرة بسيطة في الأديان القديمة، تقوم على تناسخ الأرواح، حيث تعود أرواح الأشرار والمذنبين إلى الكائنات الحقيرة والمؤذية، وتعود أرواح الأخيار والصالحين إلى الكائنات الجميلة والطيبة من بشر أو غيرهم. ثم تطورت الفكرة شيئاً فشيئاً بتطور الأديان وتعقيدات الحياة وتراكم خبرات الإنسان وزيادة حصيلته اللغوية والثقافية. فجاءت اليهودية بفكرة ضبابية عن النعيم الأخروي بمجاورة الإله يهوه. وجاءت بعدها المسيحية بفكرة الملكوت للأخيار وبحيرة الكبريت للأشرار. ثم جاء الإسلام وجعل في الجنة كل ما حُرِمَ منه العرب وتمنوه زمن محمد: مياه عذبه ومشروبات لذيذة وخمور

---

(١) شاهدتُ لقاءً مع المسؤول الفلسطيني «صائب عريقات» يصف فيه تجربته مع حالة غيبوبة اقترب فيها من الموت، ورأى خلالها بعض المشاهد. لقد بدا مقتنعاً بعد هذه التجربة الشخصية بوجود حياة وحساب بعد الموت! إنه لم يفطن إلى أن هناك أشخاص كُثُر عبر التاريخ قد مروا بمثل تجربته. وأن ما يصوّره الدماغ للإنسان في مثل هذه الحالة قد انتقل ربما من حكاية كالتي حكاها إلى عقيدة دينية، وبعد ذلك أصبحت كل تجربة مشابهة يمر بها الإنسان تُستخدم كدليل على صحة الدين!

وحدائق وفواكه وقصور، والكثير من النساء الجميلات والغلمان! كما جعل في جهنم كل ما يمكن للعقل السادي أن يتخيله!

لقد وعد محمدٌ الناسَ بصفقة ثلاثية في الآخرة! فلن يحصلوا هناك على العدل والإنصاف فقط إن هم اتبعوه، بل سيحصلون أيضاً على الجنة ونعيمها، كما سيجتنبون جهنم وعذابها. المقابل فقط هو الاستسلام والرضوخ الكامل لما يقوله! ومن لا يقبل فإنه سيخسر خسارة ثلاثية! سيدخل جهنم مباشرة، وسيُحرم من الجنة، كما أنه لن يحصل على العدل والإنصاف الذي حلم به نظير الصعاب التي ألمّت به في حياته. فيا لها من خسارة كما صوّرها الإسلام، أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ ۝ النمل! إنه استغلال فاضح لأحلام الإنسان وأمانيه ورغباته، واستغلال أيضاً لضعفه وحاجته لسند قوي يعينه على ما أصابه. إنه استغلال محض، لأنه قائم على مجرد أوهام وكلام مُلقَى على عواهنه بلا بيّنة. حُجّته فقط تكمن في مخاطبة مخاوف الإنسان ورغباته، خداع لا أكثر ولا أقل!

ولو تجاوزنا استغلال الأديان ونظرنا للمسألة من جانب آخر وسألنا أنفسنا: لماذا نحن لا نعرف يقيناً ما الذي سيحدث لنا بعد الموت؟ لماذا لا ندرك ذلك بَدَهِيَاً كما ندرك أشياء كثيرة في حياتنا؟ لماذا لا يمكن أن نتخيل ذاتياً (وبمعزل عن الروايات الدينية) ما الذي سيحدث بعد الموت؟ لماذا لا يضع الإله -المفترض- إدراكنا لما بعد الموت في فطرتنا -المفترضة- بحيث يغدو أمراً معروفاً لا جدال فيه؟! لماذا لا يكون ما بعد الموت قابلاً للإدراك كإدراكنا لحقيقة أننا سنموت؟ أسئلة لا يقدّم لها الدين إجابات مقنعة!

وبناءً على ما سبق، فمن حقنا أن نسأل: أليس عجزنا عن إدراك ما بعد الموت يجعله بمثابة «العدم»؟ والإجابة بكل طمأنينة هي: نعم. وعليه، فمن يدّعي أن ما بعد الموت ليس عدماً، فإنه يلزمه إثبات وجوده الحقيقي. والإثبات

المطلوب يجب أن يقوم على دليل يمكن التحقق منه، بحيث نتمكن بعد فحصه من إدراك ما بعد الموت إدراكاً يقينياً، يشبه إدراكنا لبقية الموجودات. وبالطبع، فمن غير المقبول أن يكون الدليل مجرد ادعاءات جوفاء تقوم على أفكار رغبوية وتعويضات نفسية وإغراءات خيالية وتهديدات وهمية! فهكذا ادّعاءات لا تمنحنا اليقين المنشود.

نحن نعلم استحالة وجود دليل يثبت ما بعد الموت كما تصوّره الأديان. وعليه، فيمكننا الاستعاضة عن الدليل اليقيني بالقياس المعقول. فالقياس، وإن لم يمنحنا اليقين المطلوب، قد يجعلنا أقرب لمعرفة الصواب. ولو بحثنا عن أقرب ما يمكننا قياس ما بعد الموت عليه، فإننا سنجد أن ما قبل قدوم الإنسان للحياة هو أقرب تلك القياسات. وما يجعل هذا القياس جيداً هو قدرة البشر جميعاً -عدى فاقدي العقول- على القيام به. فنحن جميعاً نملك خبرة في هذا الأمر، حيث كنا عدماً قبل حياتنا. فهل يدرك أحدٌ منا ذلك العدم؟ بالطبع لا أحد! وعَلَيه، فيمكننا القول أننا سنستحيل عدماً بعد الموت كما كنا عدماً قبل الحياة. إن هذا قياس مجرَّب ومقبول، ويغنينا عن أوهام الأديان وظنون أصحابها في هذا المجال!

مسلمون بلا إسلام

يردد كثير من المسلمين عبارة «مسلمون بلا إسلام» عند الإعجاب بمظهر حضاري أو عادة حسنة أو سلوك أخلاقي في بلد غير إسلامي. وهذه العبارة مقتبسة من مقولة منسوبة للشيخ «محمد عبده» بعد عودته من مؤتمر باريس سنة ١٨٨١ حيث قال: "ذهبت للغرب فوجدت إسلامًا ولم أجد مسلمين، ولما عدت للشرق وجدت مسلمين ولكنني لم أجد إسلامًا!"

تَشِي هذه العبارة بوجود نوعين من الإسلام في ذهن قائلها: إسلام نظري (عَقَدِي) وإسلام عملي. والمسلمون يريدون من ترديدها الإشارة إلى أن كل عملٍ خيّر هو بالضرورة جزء من الإسلام العملي. فهم يؤمنون بأن نبيهم محمد قد دَلَّهم على كل أعمال الخير، وأن البشرية لا يسعها الإتيان بأي عمل حسن لم يَرِد عن نبيهم المزعوم! وفي ذات الوقت، فهم يشيرون ضِمناً إلى أن تخلّفهم وتراجعهم عن بقية الأمم سببه عدم تمسكهم بالشق العملي من دينهم، وأنهم لو فعلوا لأصبحوا مثل الأمم المتقدمة بل وأفضل منها لأنهم سيجمعون حينها الإسلام النظري والعملي معاً!

ثمّة أيضاً حسرة دفينة يُعبِّر عنها المسلم عند ترديد تلك العبارة. فهو يعتقد أن الإسلام صَنَعَ دولة متحضرة في سالف الزمان، وأن الواجب كان يحتم على المسلمين الحفاظ على تفوقهم الحضاري، غير أنهم يجدون أنفسهم اليوم متأخرين ومنبهرين بما عند غيرهم. والعبارة أيضاً تحمل بين طياتها رغبة في دعوة الشعوب المتحضرة لدخول الإسلام. حيث كثيراً ما يبادل المسلم بين العبارة أعلاه وعبارة "لم يبقَ لهم إلا دخول الإسلام" عند التعبير عن الإعجاب بما لدى "الكفار"!

ولنفترض أن ما عند الدول المتحضرة (مثل الدول الإسكندنافية واليابان) يشبه الشق العملي من الإسلام، ولنتساءل: ما هي الحاجة للإسلام إذاً؟! فبناءً على ما يقوله المسلمون، استطاع الناس في تلك الدول من الإتيان بما يماثل الإسلام العملي، واستطاعوا أيضاً تطبيقه وتحقيق غاياته، دون الحاجة للوحي وللكتاب وللرسالة وللإسلام عموماً. وفي ذات الوقت، فشل المسلمون في تطبيق الإسلام على الرغم من معرفتهم به ووجوده عندهم منذ قرون! فماذا يعني هذا؟ إنه يعني أن المسلمين لم يستفيدوا من الدين، وأن الدين فشل في صنع نهضتهم. بل لو تركهم الله بلا إسلام فثمة احتمال كبير جداً أن يكونوا اليوم مثل الغرب أو أفضل! ومن هنا نرى أن المسلمين يريدون مدح الإسلام بترديد تلك العبارة ولكنهم في الحقيقة يذمّونه ويُحمّلونه مسؤولية فشلهم!

ولو عدنا للواقع وابتعدنا عن الافتراض، فإن ما عند الدول المتقدمة لا يشبه الإسلام لا من قريب ولا من بعيد. فالإسلام ليس كما يظنه المسلمون! إنه دين سيئ وضار يمزق المجتمعات ويشرعن العبودية ويبث الكراهية ويغذي العنف ويرسّخ الاستبداد ويقمع التفكير وغير هذا. ولو طبقه المسلمون فعلاً فسينحدرون أكثر ولن يصلوا إلى ما وصلت إليه الأمم المتحضرة أبداً!

إن إعجاب المسلمين بالمناحي الحضارية لدى الأمم الأخرى يدل على علو أنفسهم وتطلعهم للأفضل وتوقهم للتغيير، وهم في هذا يشبهون بقية البشر الطامحين للرقي. ولكنهم وللأسف واقعون تحت تأثير وهْم الإسلام، فلا يرون الأشياء إلا من خلاله. ولو أنهم تخلصوا من هذا العبء، وطرحوا الدين عنهم جانباً، لتمكنوا من رؤية الأشياء كما هي من غير تزييف ولا تحريف. ولاستطاعوا من تغيير حالهم إلى الأفضل، معتمدين على أنفسهم وإبداعهم ومجهودهم كما يفعل أكثر أهل الأرض اليوم، غير منتظرين لأفكار عفا عليها الزمن تحاصرهم وتعيق تحركهم.

أعداء الإسلام والمسلمين

يعتقد الكثير من المسلمين أن بقية البشر (الكفار والمشركين) يكرهونهم ويعادونهم ويتآمرون عليهم حتى وإن لم توجد أسباب مقنعة لهذا! وهذه النظرة منتشرة للأسف في البلدان الإسلامية، حيث كثيراً ما يُلقي المسلمون باللائمة في فشلهم وتخلفهم على عداوة الآخرين لهم وتآمرهم عليهم.

الحقيقة هي أن لكل الدول تقريباً أعداء خارجيون! وبالطبع قد يوجد عداء للدول الإسلامية وحتى تآمر عليها، ولكنه واقعياً ليس بالحجم ولا بالطريقة التي يتصورها المسلمون. كما أن الكثير من ذلك العداء والتآمر له مسبباته التي تتعلق بكل دولة على حِدى وبمحيطها الجيوسياسي، وليس عداءً عقائدياً محضاً سببه كره الإسلام فقط كما يتوهم كثير من المسلمين!

لو نظرنا للتاريخ، فسنجد أن محمداً قد جلب العداء لنفسه عندما بدأ دعوته، وكان ذلك عَداءً مبرراً ومفهوماً. فمحمد نصّبَ نفسه رسولاً من عند الإله الأوحد، وألَحَّ على قومه ليعترفوا بذلك، وأن يتّبعوا أوامره ويجتنبوا نواهيه. وعملياً، فما قام به محمد كان سيؤدي إلى نزع السلطة والزعامة والوجاهة والقيادة ممن هي بأيديهم ووضعها في يد محمد. كان ذلك أشبه ما يكون بانقلاب أو ثورة، وبالطبع، فأي محاولة انقلابية أو ثورية ستؤدي إلى مقاومة وعداءٍ ومؤامرات بين من بيدهم السلطة ومن ينازعهم عليها. المشكلة أن محمداً صَوَّرَ عداوة خصومة على أنها عداوة غير عقلانية وبلا أسباب موضوعية، حيث عزاها: لقلة عقل خصومه ولكراهيتهم الدين ولحسدهم المسلمين!

ومما فاقم من المشكلة أن محمداً خاض صراعاته بصفته نبياً، وبالتالي، وضع تلك الصراعات ضمن تعاليم دينه، فأصبحت صراعات خالدة ما بقي الدين!

فلم يعد الأمر مجرد صراع مع كفار مكة ومشركي العرب في زمانه، وإنما مع كل "الكفار والمشركين" في كل وزمان ومكان. ولم يعد صراعاً مع يهود المدينة ونصارى جزيرة العرب في القرن السابع الميلادي، بل أصبح صراعاً مع كل "أهل الكتاب" في كل زمان ومكان!

وبالمحصلة، فلقد قام محمد بتجريد العداء الذي لاقاه من أسبابه الموضوعية عندما عزاه إلى غباء أعداءه وعدم حكمتهم. كما نزع ذلك العداء من محدداته الزمانية والمكانية وجعله خالداً. وبعمله هذا، جعل المسلمين يتصوّرون أن كل عداء يُمارَس ضدهم هو مجرد عداء من أجل العداء فقط، وأنهم بريئون تماماً من استثارته!

ولم يكتفِ محمد بتخليد صراعاته السياسية وجعلها ديناً يتبعه المسلمين في كل زمان ومكان، بل أغلق أيضاً الباب أمام المسلمين للتفكير في الأسباب الموضوعية والواقعية الكامنة خلف العداوات التي يلاقونها أو يتوهمونها. حيث قدّم لهم أسباباً غير عقلانية للعداء الذي يلاقونه، فقال لهم مثلاً إن الناس يعادونكم بسبب "الحسد"! كما في النصوص التالي:

- وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ﴿١٠٩﴾ البقرة[1]
- أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴿٥٤﴾ النساء
- وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ القلم

(١) العفو والصفح الوارد في هذه الآية مؤقت حتى يأتي الله بأمره، وأمر الله الذي جاء هو قتالهم؛ راجع التفسير الميسر.

وفي نصوص أخرى، نجده لا يعطي حتى أسباباً للعداء، بل يقول لأتباعه أن الكفار والمشركين يكرهون الإسلام ويحاربون المسلمين دائماً وأبداً هكذا من غير سبب، كما في النصوص التالية:

- وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴿١٢٠﴾ البقرة
- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ آل عمران
- لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴿٨٢﴾ المائدة

ولمنح هذا الكُره غير المبرر ضد المسلمين هدفاً محدداً، اتهم محمد الكفار بأن هدفهم هو إخراج المسلمين من دينهم، كما جاء في هذه الجملة القرآنية: وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنْ اسْتَطَاعُوا ﴿٢١٧﴾ البقرة.

وفي الواقع، فلا أحد يهتم بعقائد الشعوب وما يؤمن به الناس. فطالما تلك العقائد لا تثير الكراهية، ولا تدعوا للعنف، ولا تشرعن العدوان، ولا تصادر الحريات، فإن الناس أحرار في اعتناقها من عدمه. أما أن يكون لديك دين عدواني ومعادي للحريات كالدين الإسلامي، ثم تتهم الآخرين بكراهيتك بلا سبب، فهذه صفاقة وتجني وظلم!

إن سلوك محمد وأتباعه ضد الآخرين هو ما يستجلب العداء لهم. فالدين الذي جاء به محمد هو من يبدأ بالخصومة، فهو يعادي ويلعن ويهين غير المؤمنين. ومن يكون تحت حكم الإسلام من غير المسلمين يجد صنوفاً من الأذى، مثل حرمانه من حرية التعبير والاعتقاد، وتفضيل المسلمين عليه حقوقياً وسياسياً واقتصادياً واجتماعياً، وسن تشريعات توقع ضرراً معتبراً به كما نجد في الردة والجزية والزواج والميراث وغيرها. دين محمد أيضاً يُشرعِن الجهاد ويبتدئ

الناس بالغزو، فيقتلهم ويستولي على أراضيهم وأموالهم، ويسبي نساءهم ويستعبد صبيانهم. وبما أن الحال كذلك، فمن المنطقي أن يعاديه المتضررون والخائفون منه!

وحتى في زمننا الحاضر، نجد من المسلمين اليوم من يقول: "العالم -والغرب خصوصاً- يتآمر علينا لمنعنا من تطبق الإسلام فلا نغدو قوة عظمى تحكم العالم!" أي أنهم يعترفون بأن هدفهم من تطبيق الشريعة هو امتلاك القوة العسكرية التي تؤهلهم لغزو العالم (الجهاد) ونشر الإسلام في كل مكان، تطبيقاً لقول القرآن: وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ الأنفال[1]. فماذا يتوقع المسلمون من القوى الدولية إزاء هذا الخطاب النازي؟ بالطبع ستعمل تلك القوى على الحيلولة دون وقوع ذلك. ففي العالم الذي نعيشه اليوم، يعتبر هذا الخطاب خطيراً على السلم والأمن الدوليين. ومن مصلحة المسلمين قبل مصلحة غيرهم عدم تحقيق هكذا تطلعات، وإلا فإن الدمار سيلحق بالكثير من الدول وأولها الدول الإسلامية المتبنية لهكذا خطاب "جهادي".

ولو رجعنا إلى طريقة محمد في تبرير عداء خصومه له، ومحاولة إظهار الأمر كعداوة غير مُسَبَّبَةٍ أو غير منطقية، فإننا نجد طريقته معروفة وكثيراً ما يلجأ لها الحكام المستبدين لتحقيق أغراضهم السياسية، والتي منها:

١. إيهام الجماهير بوجود عدو خارجي أهوج يتربص بهم، وبالتالي فعلى تلك الجماهير التوحد ورص صفوفها خلف الحاكم ليكونوا مستعدين للدفاع أو الهجوم إذا ما اقتضت الحاجة.

٢. تصوير الحاكم بالطرف المسالم والمخْلِص والحكيم، الذي تكالبت عليه

---

(١) المقصود بقوله "فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ" بحسب ما جاء في التفسير الميسر: فإن انزجروا عن فتنة المؤمنين وعن الشرك بالله وصاروا إلى الدين الحق معكم.

قوى الشر من غير سبب مقنع، إلا لرغبتها في هزيمته حتى لا ينشر الخير والعدل الذي يهدد مكتسبات الظالمين المعتدين!

٣. تبرئة الحاكم من وزر أي فشل أو إخفاق، وإلقاء اللوم على أولئك الأعداء الأشرار! فبسبب خططهم ومؤامراتهم ومكائدهم ومكرهم آناء الليل وأطراف النهار فشلت القيادة في تحقيق أمال وطموحات الشعب!

وبالطبع، فهكذا وصفة تناسب أي حاكم مستبد. ومع وجود نصوص دينية تؤيدها، فإن فكرة العداء الخارجي والمؤامرات تزداد قوة وإقناعاً للناس. ولذلك نجد فكرة العداء هذه قد تم ترسيخها وإعادة إنتاجها طوال تاريخ الإسلام. ومع طول استخدام هذا الأسلوب، وبوجود النصوص الدينية والإرث التاريخي، أصبح العداء الخارجي عقيدة عند كثير من المسلمين ينطلقون منه في نظرتهم للآخرين وتحليل علاقاتهم بهم.

لقد أصبح المسلمون يَستمرِئون العداء الخارجي ويتوهمونه على كل حال! فعندما يكونون أقوياء، تعطيهم فكرة وجود العداء الخارجي مبرراً للعدوان والجهاد من أجل التوسع والسيطرة. وفي حال كانوا ضعفاء ومتأخرين، فَتَوَهُّم العداء الخارجي يمنحهم العذر الذي يلقون عليه كل إخفاقاتهم، مما يُبرئ ساحة حكامهم من التقصير، ويغنيهم عن التفكير في الحلول المنطقية والعملية لمشاكلهم، ويجعلهم يستمتعون بالراحة والكسل دون تأنيب الضمير أو لوم الذات! ونرى اليوم كيف أصبحت شَمَّاعة "العداء الخارجي" هذه بمثابة حقنة مخدرة تُنسيهم ما هم فيه!

ثم لو سَلَّمنا أن ثمة عداء خارجي للمسلمين بالطريقة التي يدّعونها، وأن أولئك الأعداء يحيكون الخطط والمؤامرات ليل نهار لإبقاء المسلمين في حالة ضعف وتخلّف، فلنا حينئذ طرح سؤالين:

١. لماذا المسلمون مسلوبوا الإرادة ومستسلمون لخطط ومؤامرات أعداءهم

هكذا؟!

٢. لماذا لا يطبّق الأعداء الإسلام في بلدانهم طالما أنهم يعرفون أنه عامل نهضة وقوة وتَقدُّم؟!

الإجابة على السؤال الأول تكمن في التناقض الذي يعيشه كثير من المسلمين الحالمين بتطبيق الشريعة، حيث تتنازعهم رغبتان، الأولى عاطفية خيالية تدعوهم لتطبيق الدين. والنزعة الثانية عقلانية واقعية تبين لهم استحالة تطبيق الدين في عالم اليوم. وهم لم يستطيعوا الاختيار النهائي بين هاتين النزعتين. فأخذوا يعملون في الواقع مرغَمين وغير راضين تماماً، لأن هذا أقصى ما يمكنهم فعله! فلا هم الذين استطاعوا الاستجابة لنزعتهم العاطفية نحو الدين بالكامل، ولا هم الذين اقتنعوا بالنزعة الواقعية وتخلوا عن أحلامهم المستحيلة. ومع ذلك، فهم لا يستطيعون الاعتراف بالتناقض الذي يعيشونه، لأن هذا الاعتراف يحمّل الدين مسؤولية الفشل ويجعله غير صالح للتطبيق، وهم يخافون من هكذا اعتراف بسبب العذاب الذي ينتظرهم بعد الموت! فما كان منهم إلا رمي التهمة على "أعداء الدين" وإراحة أنفسهم!

أما بخصوص السؤال الثاني، فإن أي مخطِّط استراتيجي يريد وضع خطة أو نهج للتعامل مع دولة أو جماعة ما، فإن أول ما يقوم به هو دراسة منهجها الفكري وتاريخها. وعليه، فلو كان ثمة أعداء ومتآمرين حقيقيين على الدول الإسلامية، فإن هؤلاء الأعداء سيدرسون الإسلام وتاريخه. وبعد أن يعرفوا حقيقته، سيقررون إعانة الدول الإسلامية على تطبيق الإسلام وليس العكس! فالشريعة الإسلامية في حقيقتها مدمِّرة للداخل ومهدِّدة للخارج. إنها عامل خراب للمجتمعات، وليست عامل نهضة وتقدم. فهي ترسخ الاستبداد وتقمع الحريات وتعيق الاقتصاد[١]. وبالتالي فالعدو الحقيقي لن يطبّق الإسلام عنده، بل سيُعِين الدول الإسلامية

(١) ناقشت هذه المثالب في الشريعة الإسلامي في أكثر من موضع في هذا الكتاب.

على تطبيق شريعتها. حيث سيعمل هذا العدو على جعل المسلمين يُحكِّمون شريعتهم في السياسة والاقتصاد والمجتمع، وبهذا تبقى الدول الإسلامية راضية بتخلفها الذي جلبه عليها الدين، وفي ذات الوقت منهَكة اقتصادياً ومتخلفة علمياً فلا تستطيع امتلاك الأسلحة المتطورة التي تؤهلها "للجهاد في سبيل الله"!



العلماء المسلمون!

> "ينتحر العِلْم إذا ما اعتنق عقيدة"
> – توماس هنري هكسلي
> عالم أحياء بريطاني، ١٨٨٥م

تُعتبر العلوم الطبيعية في عصرنا الحاضر حجر الزاوية الذي تقوم عليه الدول المتحضرة، وقُطب الرَّحى الذي يدور عليه الاقتصاد. فهذه العلوم منحت الإنسان القدرة على معرفة طريقة سير الوجود، ومكّنته بالتالي من تسخير الموجودات لمنفعته. فعَرَفَ الأحياء الدقيقة المسببة للأمراض واكتشف لها العلاج، وعرف قوانين الفيزياء وصنع بها وسائل المواصلات الميكانيكية والاتصالات الرقمية، وعرف قوانين الكيمياء واخترع بها المواد والمنتجات المتعددة، وعرف قوانين الجيولوجيا واستخرج بها الخامات والوقود، وغير ذلك من منافع واستخدامات للعلم.

ونظراً لمكانة العلم والعلماء في عالمنا اليوم، وإجماع البشر كلهم تقريباً على الاعتراف بفضلهم وأهميتهم، حاول المسلمون استغلال ذلك للدعاية لدينهم كما هي عادتهم دائماً! فجاؤوا بالآيات والأحاديث التي تُعلِي في الأصل من قيمة "العلم الشرعي" وأوهموا الناس بأنها دليل على اهتمام الإسلام بالعلوم النافعة. بينما الحقيقة أن الإسلام يحصر العلم بشكل أساسي في معرفة الوحي وحفظه وفهمه والعمل به. ولذا فعندما يُذكَر "العلم" في الأدبيات الإسلامية فإن المقصود به غالباً يكون "العلم الشرعي" وليس العلم الطبيعي أو التجريبي الذي يتبادر للأذهان اليوم. يقول محمد: إن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا وإنما ورَّثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر؛ رواه أبو داوود والترمذي.[١]

ومن "الأدلة" الشرعية التي يسوقها المسلمون للتدليس على الناس وإيهامه بأن دينهم يهتم بالعلم قوله القرآن: قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴿٩﴾

---

(١) للاستزادة يمكن مراجعة هذين المقالين لابن باز وَ لابن عثيمين حول حقيقة العلم في الإسلام.

الزمر. والمقصود حقيقة بهذه المقولة هو ما جاء في تفسير الطبري: "هل يستوي الذين يعلمون ما لهم في طاعتهم لربهم من الثواب وما عليهم في معصيتهم إياه من التبعات، والذين لا يعلمون ذلك فهم يخبطون في عشواء لا يرجون بحسن أعمالهم خيراً ولا يخافون بسيئها شراً؟ يقول: ما هذان بمتساويين."

ومن أدلتهم أيضاً عبارة: اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ العلق. ومعنى هذه الجملة الحقيقي هو ما نقله البغوي في تفسيره عن أبي عبيدة: "مَجَازُه 'اقرأ اسم ربك' يعني أن الباء زائدة، والمعنى: اذكر اسمه. أُمر أن يبتدئ القراءة باسم الله تأديباً." ا.هـ

دليل متهافت آخر يسوقونه هو مقولة: يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴿١١﴾ المجادلة. وهذا الكلام لا يعني توقير العلم والعلماء الحقيقيون الذي يعملون على اكتشاف الوجود وتطوير حياة الناس. فالجملة السابقة جاءت ضمن سياق محدد في سورة المجادلة هو: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾! والمقصود أن الله يرفع الذين يعلمون أحكام الدين ويعملون بها، ومن ذلك أحكام الجلوس وإفساح الأماكن للقادمين في المجالس، وهذا بحسب ما جاء في تفاسير معتمدة كثيرة للقرآن. فيا له من علم جليل امتن به الخالق العظيم على البشر الحائرين الذين ما كانوا يعرفون طريقة الجلوس وإفساح بعضهم لبعض في المجالس قبل أن يأتيهم الوحي!!

وبعدما يفرغ المسلمون اليوم من إيراد الآيات والأحاديث للتدليس على الناس بكون دينهم يدعم العلم ويشجع العلماء، ينتقلون لسرد نماذج من "العلماء المسلمين" عبر التاريخ، محاولين إيهام الناس بأن ظهور أولئك العلماء ونبوغهم كان بسبب الإسلام! وكأن أولئك العلماء قد قرؤوا الآيات والأحاديث التي تحث على العلم فقرروا أن يكونوا علماء في الطب والرياضيات والفيزياء والكيمياء والفلك وحتى في الفلسفة والمنطق!

يستغل المسلمون العلم والعلماء من أجل الدعاية لدينهم وهذا سلوك متعصِّب

ومتحزِّب! فالعلم تراث بشري أسهم فيه على مر الزمان علماء وعباقرة من ثقافات وديانات وأعراق مختلفة. ومن عادة الناس نسبة العلماء إلى بلدانهم الأصلية، وذلك لغرض التعريف بهم وليس لغرض التفاخر والتمييز العنصري أو الديني. المسلمون هم الوحيدون الذين يتعصبون لدينهم وينسبون العلم والعلماء إليه، وكأنهم يقولون لو لا ديننا لما كان هناك علم ولا علماء! إننا لا نسمع عن "علماء مسيحيين" أو "فيزياء مسيحية" ولا عن "علماء بوذيين" أو "كيمياء بوذية" ولا عن "علماء يهود" أو "رياضيات يهودية" مثلاً! قد يتطرق بعض الباحثين المحايدين للخلفية الدينية لبعض العلماء، ولكن هذا يكون ضمن إطار محدد وليس بهدف رد الفضل للدين المسيحي أو البوذي مثلاً في بروز هذا العالم أو ذاك. فقط المسلمون هم من يربطون بين العالم وخلفيته الدينية من أجل دعايتهم الأيديولوجية للإسلام! وهم في الحقيقة يضرون قضيتهم بهذا العمل المشين! فماذا لو قرر أصحاب الأديان الأخرى اتباع طريقة المسلمين ونسبة علماءهم إلى أديانهم؟ حينها سيظهر المسلمون بمظهر الخاسر، كونهم لا يستطيعون حشد أكثر من بضع عشرات من العلماء القدماء، بينما أصحاب ديانات أخرى كالمسيحية يستطيعون حشد المئات وربما الآلاف من العلماء قديماً وحديثاً!

هذا، ونلاحظ أن القرنين الأولين من تاريخ الإسلام خاليان من العلماء[1]، وبالطبع نقصد العلماء الحقيقيين وليس علماء الدين. السبب في ذلك يعود لعدم اهتمام المسلمين الأوائل بالعلم الحقيقي، فالعلم عندهم كان معرفة ما جاء به الرسول عن ربه ولا شيء سوى ذلك. ولقد أدى غزو أولئك الجهلة لبلدان متحضرة، كبلاد فارس، وإخضاعها لسيطرتهم المباشرة إلى انقطاع مسيرة العلم على مدى ما يقارب القرنين من الزمن. بل قد رُوِيَ أن المسلمين قاموا بحرق الكتب وإتلافها في بلاد فارس ومصر[2]. إن من تصدَّر المشهد خلال تلك الفترة

(١) راجع: ويكيبيديا، صفحة: قائمة العلماء المسلمين، موضوع: العلماء حسب زمانهم.

(٢) راجع: تاريخ ابن خلدون (٦٣١/١) طبعة دار الفكر؛ وأيضاً: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار للمقريزي (٢٩٧/١) طبعة دار الكتب العلمية.

كان الصحابة والتابعين والفقهاء والمحدثين[١]، وانعدم وجود العلماء الحقيقيين!

ونلاحظ أن الفُرْس قد استأنفوا مسيرتهم العلمية بداية من القرن الهجري الثالث، حيث ظهر منهم الكثير من العلماء في شتى المجالات. وذلك كان نتيجة لبدء ضعف احتكار العرب للسلطة وانفتاح الحكام على الفنون والعلوم غير الإسلامية. هذا مع العلم أن الانحسار والانقطاع العلمي عاد إلى تاريخ الإسلام منذ نهايات القرن الثامن الهجري وحتى وقتنا الحاضر، حيث لم يبرز خلال هذه الفترة الطويلة سوى قلة قليلة من العلماء لا يكاد يتجاوز عددهم عدد أصابع اليدين!

ثم إن كان الفضل في بروز العلماء يعود للإسلام كما يحاول المسلمون إيهام الناس بذلك، فإن السؤال الذي يتبادر إلى الذهن هو: أين هم "علماء المسلمين" اليوم؟! لماذا توقف الإسلام عن إنجاب العلماء؟! ومن أعجب ما قرأت من إجابات على هذا السؤال هو رد السبب إلى ضعف الدولة العثمانية والاحتلال الأجنبي لبلاد المسلمين[٢]! فما دخل أحداث انتهت منذ ما يقارب القرن من الزمن في عجز المسلمين العلمي اليوم؟! هل يقصدون بأنهم لم يستطيعوا تجاوز آثار تلك الأحداث التاريخية كي ينهضوا علمياً؟! فلماذا لا يُسعفهم دينهم في ذلك ويرشدهم لطريقة تجاوز تلك الآثار طالما أنه يقود المؤمنين به إلى طريق العلم كما يزعمون؟! الحقيقة هي أن تخلف المسلمين علمياً هو أحد تجليات إيمانهم بالإسلام[٣]، ولا دخل للدولة العثمانية أو الاحتلال بذلك. فكم من شعوب تعرضت لأسوأ مما تعرض له المسلمون ونهضت وهي اليوم في مقدمة العالَم.

ولنسأل: هل نجح استغلال العلم والعلماء في الدعاية للإسلام؟ بالطبع لم ينجح! فالعلماء في العالَم لم يقتنعوا بدعم الإسلام لهم أو للعلم، وبالتالي لم

---

(١) عالم واحد فقط يُقال أنه برز في القرن الهجري الثاني وهو «جابر ابن حيان»، وهذا أمر مشكوك فيه كما سيتبين لاحقاً.

(٢) راجع: ويكيبيديا، صفحة: العلم في الإسلام، موضوع: أسباب تأخر المسلمين حديثاً.

(٣) راجع موضوع: لماذا تخلف المسلمون، في هذا الكتاب.

يتحولوا عن معتقداتهم أو إلحادهم ليعتنقوا الإسلام! فأي عالم فلك مثلاً حينما يقرأ وصف القرآن للسماء والنجوم سيرسم على شفتيه ابتسامة ساخرة ويمضي! وكذلك سيفعل علماء الطب والأجنة[1] والأحياء التطورية والجيولوجيا، بل وحتى علماء السياسة والاجتماع وغيرهم في مختلف أفرع العلم!

ومع قلة العلماء النسبي نظراً للتاريخ الإسلامي الطويل، إلا أن كثير منهم لم يسلم من التفسيق والتكفير والإقصاء والنبذ، وذلك كان بسبب انشغالهم بعلوم يراها رجال الدين محرمة مثل الفلسفة والكيمياء والفلك، أو بسبب آراء أولئك العلماء السلبية عن الإسلام! وعليه، فكيف يدّعي المسلمون اليوم بأن أولئك كانوا "علماء مسلمين" بينما المسلمون أنفسهم قد كفَّروهم وأخرجوهم من الدين ونبذوهم خارج أمتهم؟! إن هذا لا يعدو عن كونه تلاعب بالتاريخ، وخداع يمارسه المدَّعون من أجل إضفاء ميزة على الإسلام ليست فيه.

وفيما يلي أنقل[2] بعض ما قاله علماء الدين الإسلامي عن العلماء الذين ينسبهم المسلمون اليوم للإسلام ويتفاخرون بهم:

العالِم	جابر بن حيان	مجاله	الكيمياء	مولده	مختلف عليه[3]
ما قيل فيه	قال ابن تيمية: "مجهولٌ لا يُعرَف، وليسَ له ذكرٌ بين أهل العلم ولا بين أهل الدين." كما ذكر عنه ابن خلدون أنه اشتغل بالكيمياء والسيمياء والسحر والطلسمات، وهو أول من نقل كتب السحر والطلسمات.				

(١) تطرقت في كتابي «إدراك الوهم» لقضية عالم الأجنة «كيث مور» التي يتشدق بها المسلمون اليوم للتدليل على إعجاز القرآن في موضوع خلق الأجنة!

(٢) ما لم يُذكر خلاف ذلك، فإن هذه النقولات مأخوذة عن كتاب: حقيقة الحضارة الإسلامية، لمؤلفه: ناصر بن حمد الفهد؛ وفيه تجد المراجع الأصلية.

(٣) اختلف المسلمون في وجود شخصية ابن حيان، إلا أن الغالبية مع كونه شخصية حقيقية، ولكنه لم يظهر في القرن الأول الهجري، وإنما بعد ذلك. حيث أنه قد اقتبس من حنين بن إسحاق ومن القرامطة الذين لم يظهروا إلا في القرن الثالث. راجع النقل عن: الموسوعة الإسلامية باللغة الإنجليزية، في منتدى أهل الحديث.

العالِم	محمد بن موسى الخوارزمي	مجاله	الرياضيات	مولده	١٤٦هـ أوزبكستان
ما قيل فيه	قال ابن تيمية في مجموع الفتاوى: "وإن كان صحيحاً هذا العلم [الجبر]، إلا أن العلوم الشرعية مستغنية عنه وعن غيره، لأنه [الخوارزمي] منجّم ومترجم لكتب اليونان وغيرهم."				

العالِم	يعقوب بن إسحاق الكندي	مجاله	الطب والفلسفة والفلك	مولده	١٨٥هـ العراق
ما قيل فيه	"منجّم ضال، متهم في دينه كإخوانه الفلاسفة. بلغ من ضلاله أنه حاول معارضة القرآن بكلامه. قال عنه الحافظ الذهبي في سير أعلام النبلاء: كان يقال له فيلسوف العرب، وكان متهماً في دينه بخيلاً ساقط المروءة."				

العالِم	عباس بن فرناس	مجاله	مخترع ومهتم بالرياضيات والفيزياء	مولده	١٩٤هـ الأندلس
ما قيل فيه	"نُسِبَ إليه السحر والكيمياء، وكثر عليه الطعن في دينه، واتهم في عقيدته."				

العالِم	محمد بن جابر بن سنان البتاني	مجاله	الفلك والرياضيات	مولده	٢٣٩هـ حرّان
ما قيل فيه	قال عنه الذهبي في سير أعلام النبلاء: الحاسب المنجم، له أعمال وأرصاد وبراعة في فنه، وكان صابئاً ضالاً ، فكأنه أسلم وتسمّى بمحمد، وله تصانيف في علم الهيئة.				

العالِم	أبو بكر الرازي	مجاله	الطب الكيمياء الرياضيات والفلسفة	مولده	٢٥٠هـ فارس
ما قيل فيه	قال عنه الذهبي: "بلغ الغاية في علوم الأوائل، نسأل الله العافية." وقال عنه ابن قيم الجوزية: "قد أخذ من كل دين شر ما فيه، وصنف كتاباً في إبطال النبوات، ورسالة في إبطال المعاد، فركب مذهباً مجموعاً من زنادقة العالم"[1]				

(١) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان (٢/٢٤٦) طبعة مكتبة المعارف

العالِم	ثابت بن قرة	مجاله	الفلك والرياضيات والفيزياء	مولده	٢٢١هـ حران
ما قيل فيه	قال الذهبي: "الصابئ، الشقي، الحراني، فيلسوف عصره كان صيرفياً فصحب ابن شاكر، وكان يتوقد ذكاء فبرع في علم الأوائل وصار منجم المعتضد فكان يجلس مع الخليفة". وأيضاً: " كان عجباً في الرياضيات، إليه المنتهى في ذلك. وكان ابنه إبراهيم رأس الأطباء وكذلك حفيده ثابت بن سنان الطبيب. ماتوا على ضلالهم، ولهم عقب صابئة، فابن قرة هو أصل رئاسة الصابئة المتجددة بالعراق فتنبه الأمر."				

العالِم	علي بن الحسين المسعودي	مجاله	الجغرافيا والتاريخ	مولده	٢٨٢هـ العراق
ما قيل فيه	قال ابن تيمية: "وفي تاريخ المسعودي [مروج الذهب] من الأكاذيب ما لا يحصيه إلا الله تعالى، فكيف يوثق في كتاب قد عرف بكثرة الكذب؟"				

العالِم	مسلمة المجريطي	مجاله	الفلك الرياضيات والكيمياء	مولده	٣٣٨هـ الأندلس
ما قيل فيه	"كبير السحرة في الأندلس، بارع في السيمياء والكيمياء وسائر علوم الفلاسفة. نقل كتب السحر والطلاسم إلى العربية. ألف «رتبة الحكيم» و «غاية الحكيم» وهي في تعليم السحر والعياذ بالله."				

العالِم	الحسين بن عبدالله ابن سينا	مجاله	الطب والفلسفة	مولده	٣٧٠هـ أوزبكستان
ما قيل فيه	كفّره عدد من علماء الدين الإسلامي، بحسب ما جاء في: البداية والنهاية لابن كثير، وفي الكامل لابن الأثير، وفي شذرات الذهب لابن العماد. ومن الذين كفروه: الغزالي وابن تيمية وابن القيم.[١]				

(١) انظر: موقع إسلام ويب، فلاسفة في ميزان الإسلام.

العالِم	الحسن بن الهيثم	مجاله	الفيزياء والرياضيات والفلسفة	مولده	٣٥٤هـ العراق
ما قيل فيه	"من الملاحدة الخارجين عن دين الإسلام، من أقران ابن سينا علماً وسفاً وإلحاداً وضلالاً. كان في دولة العبيديين الزنادقة، وكان كأمثاله من الفلاسفة يقول بقدم العالم وغيره من الكفريات."				

العالِم	أبوالريحان البيروني	مجاله	الفلك والرياضيات والصيدلة	مولده	٣٦٢هـ أوزبكستان
ما قيل فيه	اتهم بالقرمطة والكفر، وبسبب ذلك كاد أن يقتله السلطان محمود الغزنوي مع أستاذه عندما استولى على خوارزم، لولا شفاعة البعض له.(١)				

العالِم	ابن باجة	مجاله	الطب والفلك والفلسفة	مولده	٤٨٧هـ الأندلس
ما قيل فيه	قال عنه الذهبي في تاريخ الإسلام: منسوب إلى انحلال العقيدة وسوء المذهب وكان يعتقد أن الكواكب تدبر العالم.(٢)				

العالِم	محمد بن محمد الإدريسي	مجاله	الجغرافيا والفلك	مولده	٤٩٣هـ الأندلس
ما قيل فيه	"كان خادماً لملك النصارى في صقلية بعد أن أخرجوا المسلمين منها، وكفى بذلك لؤماً وضلالاً. وفي الحديث: أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين."				

العالِم	محمد بن أحمد بن جبير	مجاله	الجغرافيا	مولده	٥٣٩هـ الأندلس
ما قيل فيه	"صاحب «رحلة ابن جبير»، ويظهر من رحلته تلك تقديسه للقبور والمشاهد الشركية، وتعظيمه للصخور والأحجار، واعتقاده بالبدع والخرافات وغيرها كثير."				

(١) الموسوعة الميسرة في تراجم أئمة التفسير والإقراء والنحو واللغة (١٩٤٢/٢)

(٢) الموسوعة الميسرة في تراجم أئمة التفسير والإقراء والنحو واللغة (٢٤٧٣/٣)

العالِم	نصير الدين الطوسي	مجاله	الفلك والأحياء والرياضيات	مولده	٥٩٧هـ الأندلس
ما قيل فيه	"نصير الكفر والشرك والإلحاد، فيلسوف ضال مضل. كان وزيراً لهولاكو وهو الذي أشار عليه بقتل الخليفة والمسلمين واستبقاء الفلاسفة والملحدين. حاول أن يجعل كتاب «الإشارات» لابن سينا بدلاً من القرآن. فتح مدارس للتنجيم والفلسفة، وإلحاده عظيم نسأل الله العافية."				

العالِم	ابن البناء المراكشي	مجاله	الرياضيات والفلك	مولده	٦٥٤هـ المغرب
ما قيل فيه	"شيخ المغرب في الفلسفة والتنجيم والسحر والسيمياء."				

العالِم	محمد بن عبد الله ابن بطوطة	مجاله	الجغرافيا	مولده	٧٠٣هـ المغرب
ما قيل فيه	"الصوفي القبوري الخرافي الكذّاب. كان جل اهتماماته في رحلته المشهورة زيارة القبور والمبيت في الأضرحة وذكر الخرافات التي يسمونها كرامات وزيارة مشاهد الشرك والوثنية."				

العالِم	محمد عبد السلام	مجاله	الفيزياء	مولده	١٣٤٤هـ باكستان
ما قيل فيه	يصفونه بأنه "المسلم" الوحيد الذي حصل على جائزة نوبل للفيزياء. والحقيقة أنه قادياني من الجماعة الأحمدية(١) التي لا تنتمي للإسلام(٢)				

يُلاحظ أيضاً أن المسلمين يضعون في قوائم علمائهم بعضاً من غير المسلمين أصلاً، وذلك للتدليس على الناس وتكثير العدد! ومن هؤلاء: الرياضي الصابئي أبو جعفر الخازن، والأطباء المسيحيين: ابن سقلاب، وابن بطلان، وابن التلميذ،

(١) انظر سيرته في الموسوعة الحرة ويكيبيديا هنا.

(٢) وذلك بحسب تصنيف «رابطة العالم الإسلامي» في مؤتمرها المنعقد في مكة سنة ١٩٧٤م.

ويوحنا بن ماسويه، وأبو الفتح منصور بن المقشر، وغيرهم.

ولم تقتصر أذية المسلمين على العلماء، بل شملت أيضاً كثيراً من الفلاسفة كابن رشد والفارابي، والأدباء كالجاحظ وابن المقفع، والفنانين كزرياب، جميعهم تعرضوا للتكفير والنبذ والإيذاء من قِبل رجال الدين المسلمين ومن يأخذ بكلامهم من الحكام والعوام. وهذا يعطينا دليلاً على أن البيئة الإسلامية منفّرة وطاردة لكل عالم ومبدع ومفكر. والسبب في ذلك يعود لإيمان المسلمين بدوغمائية ضيقة وبدائية، ومعاداتهم لكل من يخالفها!

وحتى ولو لم يعادِ المسلمون العلماءَ ويؤذوهم ويُكفّروهم، فإن ظهور أولئك العلماء في مجتمعات إسلامية لا يمنح الإسلام أي ميزة. ذلك أن التميّز الفردي أمر معتاد بين البشر، وكم من العلماء الأذكياء ظهروا ويظهرون في كافة المجتمعات والبيئات قديماً وحديثاً، المتقدمة منها والمتخلفة. إن التميز الفردي ليس معياراً لتطور الأمم والمجتمعات، بل إن المعيار هو احتضان تلك المجتمعات لأولئك المتميزين، والإفادة من منتوجهم، والبناء عليه وتطويره، مما يعود عليهم وعلى مجتمعاتهم والعالم ككل بالفائدة. وما نجده في المجتمعات الإسلامية هو بخلاف ذلك، حيث كانت تلك المجتمعات وما زالت طاردة[١]، أو على أحسن الأحوال غير داعمة للعلم والعلماء. ولذلك نجد أن إنتاج العلماء القدماء قد أثمر في أوروبا، حيث وجد من يعتني به، ويبني عليه ويطوره. بينما اندثر ذلك الإنتاج في مجتمعاته الأصلية وأصبح مجرد مادة للفخر العربي والإسلامي عند الحاجة!

الحقيقة التي لا يراها المسلمون أو لا يريدون رؤيتها هي أن دينهم كان على الدوام سيفاً مُسْلَطَاً على رقاب العلماء والمفكرين، فهو ضد حرية التفكير ومعادٍ

(١) وكشاهد على استمرار البيئة الطاردة للعلماء، نذكر العالمين "المسلمَين" الآخرين اللذين حصلا على جوائز نوبل في العلوم هما مصري وتركي كانا قد هاجرا إلى الولايات المتحدة.

للعلم ومثبّط للعلماء. فهذا الدين يجعل نفسه فوق كل العلوم ومهيمناً عليها، ثم يقدّم مَعَارِفاً علمية بدائية أو خاطئة[1]، ويمنع المسلمين من نقدها وتجاوزها. إنه يضع سقفاً منخفضاً لمجالات علمية متعددة، مثل الفلك والجيولوجيا والطب والأحياء، ثم يَحْرِم العلماء من حرية تجاوز ذلك السقف، ويهدد من يتجرأ على ذلك بالتكفير والعذاب! إن العلم والعلماء يجب أن يكونوا أحراراً، يسيرون خلف الحقيقة أينما كانت، دون قيود عقائدية ودوغمائية كالتي توجد في الإسلام.

ولعل من المناسب إنهاء هذا الفصل بكلام ابن قيم الجوزية في الدفاع عن الصحابة وعلومهم على حساب العلوم الأخرى، حيث يقول في كتابه هداية الحيارى (٢/٤٤٢): "فلو قيس ما عند جميع الأمم من معرفة وعلم وهدى وبصيرة إلى ما عندهم [أي الصحابة] لم يظهر له نسبة إليه بوجه ما، وإن كان غيرهم من الأمم أعلم بالحساب والهندسة، والكم المتصل والكم المنفصل، والنبض والقارورة والبول والقسطة، ووزن الأنهار ونقوش الحيطان، ووضع الآلات العجيبة، وصناعة الكيمياء، وعلم الفلاحة، وعلم الهيئة وتسيير الكواكب، وعلم الموسيقى والألحان، وغير ذلك من العلوم التي هي بين علم لا ينفع، وبين ظنون كاذبة، وبين علم نفعه في العاجلة وليس من زاد المعاد."

(١) راجع فصل «الإعجاز العلمي» في كتابي «إدراك الوهم» حيث سردت أمثلة للمعلومات الخاطئة التي يروج لها الإسلام.

تاريخ الإسلام "العظيم"

احتاج المسلمون المنادون إلى عودة الحكم الإسلامي إلى ركيزة يستندون عليها لتبرير دعواهم وبيان نجاعة النظام الإسلامي وصلاحيته للحكم. ولقد وجدوا ضالتهم في التاريخ! فاستخدموه كدليل على صوابية دعواهم وكنموذج يجب الاحتذاء به. ولأن التاريخ الحقيقي لا يفيدهم في مسعاهم، فقد قاموا بتزييفه تارة وانتقاء ما يخدمهم منه تارة أخرى وإخفاء ما سوى ذلك. وغرضهم دائماً هو تجميل التاريخ الإسلامي من أجل خدمة أهدافهم.

وفي مشهد يوضّح مدى التزييف الذي مارسه المنادون لعودة الحكم الإسلامي وانحراف بوصلتهم الأخلاقية، نجدهم قد جعلوا "الجهاد وفتح البلدان" مفخرة هذا الدين والدليل على عظمته، وسِمة عصره المجيد الذي سَمّوه عصر "الفتوحات الإسلامية"! فتجدهم يتحدثون عن الغزو والقتال بشاعرية كبيرة وكأنما يروون قصة حب! وكم سمعتُ من محاضرات دينية يحكي فيها المشايخ عن غزوات الرسول والمسلمين من بعده وهم يبكون ويبكي معهم الحاضرون! فعلى الرغم من نفور الأنفس السوية من الحروب والقتل والنهب والسبي والرق، إلا أن المسلمين لم يجدوا صعوبة في قلب كل هذه الأفعال الشنيعة وجعلها أموراً حسنة يفتخرون بها ويتمنون عودتها! ولقد سَهّلَتْ عليهم العقيدة التي يؤمنون بها هذا الانحراف الأخلاقي وسوّغته لهم. فهذه العقيدة في حقيقتها ليست سوى أيديولوجيا سياسية هدفها الحكم والتوسع كما أسلفتُ، ولذلك فقد جعَلتْ "الجهاد" ذروة سنام الإسلام عند المؤمنين، ووعدت "الشهداء" بسبعين من الحور العين!

ونتيجة لمكانة الجهاد والقتال عند المسلمين، نجد كثيراً منهم عندما يناقشون التقدم الذي يريدونه فإنهم يربطونه بالقوة العسكرية والقدرة على الغزو والتوسّع!

وقليلاً ما يخطر ببالهم التقدم الحضاري الذي يصون الحريات العامة والخاصة وحقوق الإنسان ويرسّخ السلام والتعايش بين المختلفين ويحافظ على الأرض ومواردها ويرتقي بالإنتاج العلمي والفني وينمي الاقتصاد ودخل الأفراد ويحسّن التعليم والخدمات العمومية ونحو هذا من مظاهر التمدن والتحضر.

ومع محورية فكرة استعادة القوة والهيبة العسكرية في نظرة كثير من المسلمين للتقدم المنشود، إلا أن المجملين للتاريخ الإسلامي يعمدون أحياناً إلى تطعيمها بحوادث منعزلة منتقاة من تاريخ ممتد على مدى ١٤ قرناً. مع تقديم تلك الحوادث على أنها مجرد أمثلة تدلل على عظمة التاريخ الإسلامي، وإيهام المتلقي بأنه لو بحث لوجد الكثير والكثير غيرها من مظاهر العظمة والفخر في هذا التاريخ "المشرق"! بينما الحقيقة أنهم لا يملكون غير تلك الأمثلة "المشرقة" طوال تاريخ الإسلام. وكم صدّعوا رؤوسنا بحكم الخليفة «عمر بن عبدالعزيز» مثلاً، وجعلوه خامس الخلفاء الراشدين، وجعلوه نموذج مثالي على تاريخ الإسلام العظيم، بينما هو في الحقيقة دليل على مدى سوء ذلك التاريخ! فذلك الخليفة لم يحكم سوى سنتين وشهرين يقولون أنه أشاع خلالها العدل. فأي دين هذا الذي يستمر ١٤ قرناً ثم لا يجدون في تاريخ حكامه -من غير الراشدين بحسب زعمهم- سوى سنتين وشهرين يتغنَّون بها؟! ولا ننسَ أنه قُتِلَ مسموماً أيضاً![(١)]

وبالإضافة لتضخيم الحوادث الإيجابية الفردية والمنعزلة، فإنهم يَعْمَدُونَ أيضاً إلى قلب الوقائع وتصوير الأحداث التاريخية على غير حقيقتها. ولنأخذ فيما يلي

---

(١) الحقيقة هي أن عهد عمر بن عبدالعزيز لم يكن أفضل حالاً بكثير من عهود من سبقوه ولحقوه. فهذا الخليفة قد فشل إلى حد بعيد في السيطرة على عمّاله وولاته، ولم يستطع الحد من ظلمهم وتسلطهم على الناس. ونقرأ هنا أبياتاً للشاعر كعب بن معدان الزهراني يشتكي فيها الوالي للخليفة عمر بن عبدالعزيز:

إن كنت تحفظ ما يليكَ فإنّما — عُمَّالُ أرضِكَ بالبلاد ذئابُ
لن يستجيبوا للذي تدعو له — حتى تُجَلَّدَ بالسيوف رِقابُ

بعض الأمثلة على ذلك. يذكرون أن نفراً من بني قينقاع قد آذوا امرأة مسلمة في السوق. حيث ربطوا ثوبها من خلفها، فلما قامت انكشفت عورتها. فإن صَدَقَتْ هذه الحادثة، فهو فعل مشين ولا شك، وللمرأة حقها الخاص في المطالبة بعقوبة هؤلاء أو تعويضها جراء ما أصابها من أذى معنوي. ولكن محمد كان له رأي آخر! حيث قام بتجهيز جيشه وحاصر قبيلة بني قينقاع كلها، بما فيها من رجال ونساء وعجزة وأطفال[١]! وبعد حوالى ١٥ يوماً من الحصار الخانق، استسلمت القبيلة. فأراد النبي قتل رجالهم وسبي النساء والذرية ومصادرة الأموال[٢]! وأمام هذا الجنون، تقدم عبدالله بن أبي سلول (والذي يتهمه المسلمون بالنفاق) وقال لمحمد: هل تريد قتل ٧٠٠ رجل في ساعة واحدة؟! ومع إصرار ابن أبي سلول على مراجعة الحكم، تراجع محمد عن القتل وأمر بتهجير القبيلة عن ديارها إلى منطقة بعيدة في الشام. وبالطبع، استولى محمد وصحابته على بيوت القبيلة وأراضيها وكل ما خلّفوه وراءهم! والسؤال هنا: كيف يعاقب محمد قبيلة كاملة بسبب جُنحَة قام بها نفر أو بعض نفر من القبيلة؟ أين مبادئ محمد وقرآنه الذي يقول: ولا تزر وازرة وزر أخرى؟ لقد تبخر ذلك القرآن أمام أطماع محمد وصحابته! وليست هذه الحالة الوحيدة، بل نجد في السيرة مثل هذا الحكم الجائر يتكرر مع قبائل أخرى، ولقد ذكرت في كتابي «إدراك الوهم» مثالاً آخر حدث مع قبيلة بني النضير. والمسلمون يسمّون هذه الجرائم "غزوات" النبي، ويقصّونها بنشوة وفخر منقطع النظير!

---

(١) بالمناسبة، ورد عن علي بن أبي طالب قوله "أن يهودية كانت تَشْتُم النبي وتَقَع فيه، فخنقها رجل حتى ماتت، فأَبْطَل رسول الله دمها" رواه أبو داود. فهل كان سيقبل المسلمون قيام جيش اليهود بمحاصرة المدينة وتهجير المسلمين منها متعذّرين بهذه الحادثة؟ مع العلم أن المسلم قد "قتل" اليهودية وأهدر النبي دمها، بينما اليهودي قد آذى المسلمة معنوياً فقط وكان اليهود موافقون على معاقبته. قد يقول المسلمون الإعتذاريون اليوم أن كشف العورة أشد من القتل ربما!

(٢) الانتقام من الكل بجريرة البعض هي سمة مستقرة في الإسلام. انظر فصل «شريعة الانتقام» في هذا الكتاب.

مثال آخر نسوقه هنا يوضح الميزان الأخلاقي المختل الذي يقلب به المسلمون تاريخهم من "مشين" إلى "مجيد"! أرسل محمد سرية[١] من أربعين رجلاً بقيادة الصحابي عكاشة بن محصن الأسدي إلى «الغمر»، وهو تجمع قبلي حول بئر (أو واحة) ماء لبني أسد. خرج عكاشة يسرع في السير، وحينما وصل المكان المذكور، وجد ديار القوم خاوية، حيث قد علموا بقدوم الغزاة وهربوا. ونحن نجد في زمننا القريب أمثلة على سلوك المسلمين هذا! فلقد نشرت الدولة الإسلامية في العراق والشام (داعش) الرعب في النفوس، حيث كان الناس يتحاشون لقاءهم، ويفرون من بيوتهم إذا ما علموا بتوجه داعش إليهم. وهذا أيضاً يذكرنا بمقولة محمد: "نُصِرت بالرعب مسيرة شهر"، حيث كان الناس يخافون جيش المسلمين، حتى ولو كان ذلك الجيش يحتاج شهراً كاملاً للوصول إليهم، وذلك بسبب ما سمعوه عن همجيتهم ووحشيتهم المفرطة وخلو قلوبهم من أي معنى للرحمة "بالكافرين"، تماماً كداعش وأكثر!

وبعد الاستطراد المتعلق بداعش، نعود لسرد قصة سرية بني أسد! عندما وجد عكاشة ديار القوم خاوية، بعث بعضاً ممن معه للبحث عنهم. فوجدوا رجلاً نائماً، فسألوه عن القوم، فقال لهم: لقد رحلوا إلى أعالي بلادهم. فسألوه عن ماشيتهم. قال: أخذوها معهم. فضربه أحدهم بالسوط! فخاف الرجل وقال لهم: تؤمنوني على دمي وأدلكم على ماشية لبني عَمٍّ لهم لم يعلموا بمجيئكم؟ قالوا له: أنت آمن إن دللتنا على الماشية! انطلق الرجل وانطلقت السرية معه. فسار بهم طويلاً حتى خافوا أن يغدر بهم. فقالوا له: والله لتصدقنّا أو لنضربن عنقك. فقال: تجدون بني عمهم من بعد هذا التل. فلما نظروا من فوقه وجدوا ماشية كثيرة، فأغاروا عليها وغنموها! فإذا هي مئة بعير. وهرب الناس، ولم يلحقوا بهم. عاد الصحابة إلى المدينة بتلك الإبل، وأطلقوا سراح الرجل الذي دلهم.

(١) السرية في سياق «السيرة النبوية» تعني مجموعة عسكرية مكونة من صحابة محمد، موكلون بتنفيذ مهمة قتالية.

وبالطبع فرح النبي محمد بتلك الغنيمة ودعا للمجاهدين بالجنة! فانظر عزيزي القارئ لهذه الأحداث التاريخية التي يتفاخر بها المسلمون: يرسل النبي سرية إلى قبيلة آمنة في ديارها، وعندما لا يجدونهم، يغيرون على قبيلة أخرى لا علاقة لها بالأمر، فيُهجّرونهم ويأخذون ماشيتهم! فكيف لعاقل يملك ضميراً وأخلاقاً أن يتفاخر بهذا؟!

مثال آخر أيضاً يرددونه على مسامعنا كثيراً للدلالة على أمانة الجيش الإسلامي الذي "فتح" بلاد فارس أيام الخليفة "الراشد" عمر بن الخطاب. حيث أرسل ذلك الجيش تاج كسرى ومجوهراته وملابسه إلى عمر بن الخطاب في المدينة، وقد كانت كنوزاً كثيرة. فقال عمر: "إن قومًا أدّوا هذا لَأُمَنَاء" فقال له علي بن أبي طالب: "عففت فعفّوا ولو رتعتَ يا أمير المؤمنين لرتعت أمتك." والمجمِّلون للتاريخ لا يتطرقون لمدى شناعة هذه الحادثة! فتلك الأموال من حق الناس في بلاد فارس. حيث أن المسلمين قد غزوا تلك البلاد بحجة تخليص الناس من الظلم، فلماذا يأخذون أموال كسرى ويرسلونها إلى المدينة بدلاً من إعادتها للشعب الذي حُرِمَ منها؟! إن كسرى كان ظالماً واستأثر بتلك الكنوز لنفسه ولم يعطها شعبه، فبأي حق يأخذها المسلمون وهم الذين يدّعون العدل وتحرير الناس؟ ولقد تكرر ظلم المسلمين هذا مع شعوب أخرى في الشام ومصر وشمال إفريقيا والهند.

حادثة أخرى أذكرها وردت في كتاب «البداية والنهاية» لابن كثير عن "فتح" مصر. حيث جاء رجلان من الأقباط، هما الجاثليق أبو مريم والأسقف أبو مريام، إلى عمرو بن العاص يسألانه رد النساء المصريات اللاتي سباهنَّ المسلمون. فرفض عمرو رد النساء، وطرد الرجلين من عنده. فلما بلغ ذلك عمر بن الخطاب أمر بإرجاع السبايا اللاتي أُخِذن خلال الخمسة أيام التي أُعطي فيها الناس الأمان، وكذلك السبايا اللاتي أُخِذن ممن لم يقاتل. أما سبايا

المقاتلة والنساء اللاتي أُرسلن إلى المدينة ومكة وغيرها من البلدان فلا يمكن إرجاعهن إلى أهاليهن! فانظروا لمدى ظلم حكم عمر بن الخطاب وهو أيقونة العدل في التاريخ الإسلامي! كيف يقبل أخذ النساء من بين أهاليهن وتشتيتهن في البلدان واغتصابهن! فيا لعدالة الإسلام المنكوسة!

وهنا مثال آخر من "فتوحات" شمال إفريقيا. ففي بدايات غزو تلك البلدان، قالت ملكة الأمازيغ «ديهيا» لوفد المسلمين: "إن كان الإسلام خيراً فأعطوناه وعودوا إلى بلادكم." لقد كان طلبها منطقياً وحكيماً: أعطونا الرسالة التي تزعمون أن الله أمركم بنشرها وعودوا إلى بلادكم، ونحن -الأمازيغ- سننظر فيها ونأخذ بها إن كانت خيراً، فمن طبع الناس حب الخير والأخذ به من غير قتال وسفك دماء. لكن المسلمون لم يقبلوا طلب الكاهنة ديهيا، وأصروا على الإسلام الآن وحالاً أو دفع الجزية أو القتال[١]! وحينها عرفت الملكة أن هدف المسلمين الحقيقي لم يكن "هداية الناس" كما يزعمون، وإنما التوسّع وسلب الناس أراضيهم وأموالهم ونساءهم وأبناءهم! ولذا، قالت لقومها: " إن العرب إنما يطلبون من إفريقية المدائن والذهب والفضة، ونحن إنما نريد منها المزارع والمراعي، فلا نرى لكم إلا خراب بلاد إفريقية كلها، حتى ييأسَ منها العربُ، فلا يكون لهم رجوعٌ إليها إلى آخر الدهر."[٢] وبعد حروب طويلة وسجال بين الطرفين، انهزم الأمازيغ أمام بربرية جيش المسلمين، وعانوا بعد ذلك أشد المعاناة.

لقد كان المسلمون "يفتحون" البلدان ويُقْصُونَ أهلها عن الحكم ويستأثرون به لأنفسهم! وهذا احتلال صريح وليس "فتحاً" كما يزعم المسلمون! ولو كان

(١) أقصى مدة يمنحها جيش المسلمين للتفكير في شروطهم (الإسلام أو الجزية أو القتال) هي ثلاثة أيام فقط، وذلك كما قال ربعي بن عامر لقائد جيش الفرس رستم قبل معركة القادسية.

(٢) كتاب البيان المغربي في اختصار اخبار ملوك الأندلس والمغرب (٦٣/١)، تأليف احمد بن محمد العذاري، نقلاً عن ويكيبيديا.

فتحاً كما يزعمون، لجعلوا أهل البلاد يحكمون بلدانهم، ولاكتفى المسلمون بدعمهم مادياً وعسكرياً واستشارياً عند الحاجة. ولكن هذا لم يحدث، بل استولى المسلمون على البلدان المفتوحة بالكامل وضموها إلى دولتهم وفرضوا على أهلها الجزية والخراج، بل وعملوا على تغيير دياناتهم ولغاتهم، والمجيء بقبائل عربية للاستيطان في بيوتهم وعلى أراضيهم، وتولي الحكم بدلاً عنهم. وأنا أكرر السؤال هنا: هل هذا هو التاريخ الذي يتغنى به المسلمون اليوم ويريدون إرجاعه؟ تاريخ الغزو والاحتلال والاستيطان والنهب والاستعباد والتغيير الديموغرافي؟ وهل سيقبل المسلمون اليوم من المغول أو الإنجليز مثلاً استعادة "تاريخهم المجيد" والعودة إلى احتلال البلدان الإسلامية؟

ومن جهة أخرى، يستشهد المجمّلون للتاريخ الإسلامي بأفراد مبدعين ظهروا خلال حقب زمنية مختلفة إبان تاريخ الإسلام. وهم بهذا يريدون التدليل على عظمة الدين وأنه داعم للعلوم والفلسفة وصانع للحضارة. وهذا ادعاء اجوف من وجهين:

١. لقد تم تكفير ومعاداة وإيذاء الكثير من العلماء والفلاسفة خلال التاريخ الإسلامي. وذلك لأن منتوجهم العلمي أو الثقافي جاء مخالفاً لما تقرره الشريعة الإسلامية، أو لأن أولئك العلماء والفلاسفة كان لهم آراء سلبية عن الدين.

٢. لا يمكن إثبات عظمة حضارة ما بالاستشهاد بمجرد إنجازات لأفراد متميزين منها! فالتميز الفردي موجود في كل زمان ومكان. أما الحضارة فيُحكَم عليها من خلال تأثيرها على الناس بمجملهم وتطورها في مجالات التنمية والاقتصاد والحقوق والاجتماع والفنون والعلوم والعمران. والتاريخ الإسلامي فقير في هذا الجانب، إلا في حواضر معدودة أسهم في بناءها مسلمون وغير مسلمين وعلى مدى فترات متباعدة.

ولو تجاهلنا المجمّلين لتاريخ الإسلام، ونظرنا إلى ذلك التاريخ بنوع من الحيادية، فإننا نرى أن المسلمين يُحمِّلون أنفسهم ما لا يطيقون بتقديسهم التاريخ وخاصة سيرة الرسول وخلفائه الراشدين! فبحسب العقيدة الإسلامية، فإن الإسلام صالح لكل زمان ومكان، وبالتالي فما كان صالحاً في زمن الرسول والخلفاء لابد أن يكون صالحاً في زماننا اليوم! ولذلك يَجهَدُ المسلمون لجعل هذا التاريخ متوافقاً مع المعايير الإنسانية والقانونية الحالية، حتى لا يُرفض التاريخ ويكون هذا بالتالي مسوغاً لرفض الإسلام بالكامل. ولذا نجد المسلمين اليوم يحاولون تبرير أمور مشينه مثل: قتل العرنيين، واغتصاب سبايا أوطاس، وغزو القبائل، وإرسال السرايا، وممارسة الاغتيال السياسي، وأخذ الغنائم والعبيد والإيماء، وحتى أحكام هزلية مثل: إرضاع الكبير، وتغطيس جناح الذبابة، وشرب بول الإبل!

هذا ولا ننسَ الإشارة إلى أن العظمة والثروة في التاريخ الإسلامي كانت متمركزة في يد الحكام وحاشيتهم فقط. أما الشعوب والأفراد فلم ينالوا من ذلك شيئاً! فلم تزدهر الحريات، ولم يكن للناس حقوق محددة، ولم يكن ثمة سلطة للقانون الحر، ولم يكن هناك رقابة شعبية وشفافية وغيرها مما تنعم به الشعوب المتحضرة. كما لم يزدهر الاقتصاد ولا الصناعة، ولم يزدد دخل الفرد، ولم تكن هناك بنية تحتية أو تعليم عام بالمعنى المعروف. بل كانت الأصوات مخنوقة والخوف مستشرياً والمرض متفشياً والفقر مُدقِعَاً والجوع منتشراً والجهل أكثر انتشاراً [1]. ونكرر السؤال: هل هذا هو التاريخ "الذهبي" الذي يريد المسلمون اليوم استعادته؟!

(١) انظر مثلاً في أشعار الصعاليك السياسيين الذين دونوا في قصائدهم مشهد الأوضاع المزرية التي عاشها الناس في ظل الدول الإسلامية، ومقدار الظلم والقمع الذي مورس على الشعوب. وتجد بعض هذه الأشعار في كتب الدكتور حسين عطوان مثلاً، ككتاب «الشعراء الصعاليك في العصر الأموي» وكتاب «الشعراء الصعاليك في العصر العباسي الأول».

لقد أعزنا الله بالإسلام!

اتخذ المسلمون دينهم مرجعاً لكل شيء تقريباً، مرجعاً تشريعياً، ومعرفياً، وسلوكياً، وأخلاقياً، بل وحتى لغوياً. وبذلك أصبح عندهم الصواب هو ما يقرره الدين صواباً، والعكس بالعكس. إنهم لم يمنحوا أنفسهم فرصة للتفكير والنظر إلى الحوادث والأشياء بنوع من التجرد والحياد والاستقلالية، بعيداً عن معايير الدين وموازينه. إنهم لم يستفيدوا من تجاربهم طوال التاريخ، ولا حتى من تجارب الأمم والشعوب الأخرى. فهم رافضون على الدوام لكل خبرة أو تجربة تتعارض مع دينهم ومحدداته. وحتى لو أرغمتهم الظروف وجرفهم التيار بعيداً عن خط سير الدين، فإنهم سرعان ما يفزعون عائدين إلى نهجهم الأول، مستغفرين "الله" وداعينه بالثبات حتى الممات! ولهذا بقي المسلمون طوال تاريخهم تقريباً يدورون في حلقة مفرغة، وقد فشلوا في مراكمة الخبرات، والإتيان بنظام حضاري جديد ينتشلهم مما هم فيه!

إن المؤمن المتلبّس بالإيمان لا يرى مدى سوء المرجعية التي يحتكم إليها، ولا مدى ضررها عليه وعلى مجتمعه. ولكن الناظر من الخارج يرى بوضوح ذلك السوء ويدرك بجلاء مدى الضرر. وإن المرء ليعجب من مقدار المثالب في دين الإسلام، وكيف لا يراها المؤمنون على الرغم من وضوحها الجلي! فهذه المساوئ ظاهرة في كليات الدين وجُزئياته، بل وحتى في الكثير من الشعارات والأقوال التي من المفترض أن تكون دعائية وتجميلية للدين!

ومن المقولات التي يرددها المسلمون بكثير من الفخر، ولكنهم يعجزون عن رؤية مدى السوء والقبح الذي تحمله، مقولة وردت عن عمر بن الخطاب يقول فيها: «نحن قوم أعزنا الله بالإسلام فمهما ابتغينا العزة من دونه أذلنا الله»! ولو حللنا هذه العبارة لرأينا أنها في الحقيقة تحمل بين طياتها إدانة للإسلام

والمسلمين، وقدحاً في عدالة إلههم الموهوم!

لقد عنى عمر بقوله "نحن قوم" أمة العرب تحديداً. فلقد ورد في كتاب «البداية والنهاية» ما نصه: " فقال له الجلومس: أنت ملك العرب وهذه بلاد لا تصلح بها الإبل، فلو لبست شيئاً غير هذا وركبت برذوناً لكان ذلك أعظم في أعين الروم. فقال عمر: نحن قوم أعزنا الله بالإسلام فلا نطلب بغير الله بديلاً." وأيضاً ورد في «مستدرك الحاكم»: "قال عمر: لو قال ذا غيرك أبا عبيدة لجعلته نكالاً لأمة محمد، إنا كنا أذل قوم فأعزنا الله بالإسلام فمهما نطلب العز بغير ما أعزنا الله به أذلنا الله." وقد ورد أيضاً كلام عن غير عمر في هذا المعنى، مثل ما قاله «المغيرة بن زرارة» ليزدجرد قائد الفرس، حيث وصف فيه حال العرب قبل الإسلام وكيف تبدل حالهم بعده. نستخلص من كل هذا أن الإسلام دين عنصري. فهو قد غير حال "العرب" على حساب الأمم المحيطة بهم. إنه لم يغير حال "العرب" نتيجة جهد ذاتي قاموا به من خلال العلم والاكتشاف والتصنيع مثلاً، وإنما بالغزو والاستيلاء على أراضي الغير وأموالهم! فأي فخر في هذا؟

ثم ما هي «العزة» التي يقصدها عمر ويوافقه عليها المسلمون؟ هل هي الغزو والحرب والقتل، والسيطرة على البلدان وإبعاد أهلها عن الحكم، وفرض الجزية والخراج، وأخذ الغنائم والسبايا والعبيد؟ هل العزة تكمن في زيادة القوة العسكرية ومراكمة الثروات بالسطو والاحتلال؟ هل عزة العرب لا تتحقق إلا فوق جثث الناس وآلامهم ومعاناتهم؟ فإن كانت هذه العزة في مفهوم عمر والعرب، فتعساً لها من عزة!

ومن جهة أخرى، فما الميزة التي يقدمها الإسلام في تحقيق هذا النوع من العزة؟ إن الإسلام هنا يشبه أي أيديولوجية عسكرية توسعية شهدها التاريخ. فها هو الإكسندر المقدوني قد غزا البلدان وأعزه الله كما يفهم عمر. وكذلك فعل

قورش، ويوليوس قيصر، وجنكيز خان، وتيمور لنك، وأدولف هتلر، وغيرهم! وكذلك نشأت دول وإمبراطوريات، وكانت ثرية وقوية ومهابة من غير أن تدين بالإسلام. فما هي ميزة الإسلام هنا؟ لا شيء!

وأكثر ما يثير حفيظتي في كلام عمر هو المقطع الأخير من مقولته: «فمهما ابتغينا العزة من دونه أذلنا الله»! إنه يشير إلى أن قَدَر العرب الأبدي هو أن يكونوا مجموعة من الغزاة، لا يمكنهم تحقيق "العزة" إلا على حساب الشعوب والأمم الأخرى. وأنهم إذا ما أرادوا تحقيق العزة بمجهودهم الذاتي، كما تفعل الأمم المتحضرة اليوم، فإن الله سيقوم بإفشالهم حتماً! فلو أرادوا العزة بالديموقراطية والحرية والانفتاح الاجتماعي والتعايش والقوانين الوضعية ورفع مستوى التعليم ودعم البحث العلمي وتنمية الاقتصادية بالصناعة والزراعة، بعيداً عن العسكرة والجهاد والغزو، فإنهم حتماً سيفشلون! وهذا ليس مفهوماً من كلام عمر فقط، بل هناك نصوص دينية تؤيده صراحةً، مثل قول محمد: إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ وَتَرَكْتُمْ الْجِهَادَ، سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ذُلًّا لَا يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ؛ صححه الألباني. فأي فهم سقيم للعزة وللتطور الحضاري هذا؟ كيف يقبل الناس ديناً يعادي السلام، ويحرم الناس من العلم والإنتاج، ويمنعهم من تطوير الصناعة والزراعة، ويحرضهم على الحروب والقتال؟!

وحتى لو تنازلنا، وقبلنا فهم عمر للعزة، فإنه كان بمقدورنا التغاضي عن القتال والاحتلال بصفته سمة بشرية تتكرر عبر التاريخ، ولكن شريطة إنشاء دولة متحضرة وراقية تقيم العدل وتنشر الرفاه بين الناس بعد الانتهاء من القتال. غير أن الصحابة لم يفعلوا ذلك، بل أنشؤوا دولة استبدادية مركزية متخلفة، تتصف بالتمييز الديني بين المواطنين، ولا تعرف للحقوق والحريات طريقاً! وقد يقول قائل: أنت تحاكم دولة تاريخية بمعايير حديثة! وأقول لأصحاب مثل هذا الطرح: إن المسلمين اليوم يؤمنون بالعزة على طريقة عمر، ويسعون لتحقيقها بالطريقة التي فعلها عمرا! ولو أنهم تبرءوا من كلام عمر وفهمه للعزة وطريقة تحقيقها، لما كان لكلامي وجاهة

حينها. ومن جهة أخرى، فإن عمراً قد أرجع سبب العزة للإسلام، وبما أن الإسلام دين الإله العالم بكل شيء، فإنه كان من الواجب عليه وضع فهم راقٍ للعزة، وإرشاد المسلمين للطريق الصحيح لتحقيقها. فالناس قديماً سيكونون سعداء لو مَنَحَهُم الصحابة حق التصويت والانتخاب، وطوروا الصحة والتعليم، وشيدوا الطرق وشبكات المياه والصرف الصحي[1]، وحثوهم على الاكتشاف والابتكار، وشجعوهم على التصنيع، ونَمّوا الاقتصاد، وزادوا دخل الفرد، وأنهوا العبودية، وغير ذلك من عوامل النهضة والتطور. فما هو صالح اليوم سيكون صالحاً بالأمس، والإله العليم يعرف ذلك! ولكن الصحابة لم يقوموا بشيء من هذا بالطبع، وإنما عملوا وفق مفاهيم ومعارف زمانهم، لأن دينهم الذي ساروا على نهجه هو نِتَاج زمانهم أصلاً وليس ديناً من لدن الإله العالم بكل شيء.

إن العرب اليوم عاجزون تماماً عن تحقيق هذه العزة الإسلامية بفهم عمر بن الخطاب، والقائمة على القوة العسكرية والرغبة في التوسع وتهديد الأمم الأخرى. فمن يريد تحقيق هكذا "عزة" في عصرنا الحاضر، فعليه إنجاز عدة أمور منها:

- تحقيق تقدُّم علمي يؤهله لصناعة عسكرية متطورة براً وجواً وبحراً وفضاءً،
- إقامة اقتصاد قوي يؤهله لتمويل صناعاته الحربية ومغامراته العسكرية،
- استحداث نظام دولي يستبدل القانون الدولي الحالي والهيئات المعنية بتطبيقه، كمجلس الأمن ومحكمة الجنايات الدولية.

والعرب بطبيعة الحال لا يقدرون على أي من هذه الأمور. فهم أولاً يرزحون تحت حكم استبدادي يحرمهم الحرية من جهة ويقلل انتماءهم لأوطانهم من جهة أخرى. وهم ثانياً يعانون من اضطرابات عديدة داخل مجتمعاتهم نتيجة تصادم خليط من الأفكار والرؤى الدينية والحداثية. وثالثاً هم محصورون بمجموعة

(١) هذه خدمات موجودة منذ ما قبل الإسلام، بل منذ ما قبل التاريخ كما يشهد بذلك آثار مدن اليونان القديمة.

من المفاهيم الدينية والتقاليد الموروثة التي تضع لهم سقفاً منخفضاً في ميادين الاجتماع والعلوم والاقتصاد. كل هذه العوامل أضعفت العرب داخلياً، وجعلتهم عاجزين خارجياً بالضرورة.

لقد كان طريق تلك العزة الذي وضعه الإسلام للعرب وعراً، وأشبه بالمتاهة، ومحفوف دائماً بالمخاطر. لقد كانت "الانتصارات" التي حققها العرب بسيرهم على طريق "عِزَّتِهم" مجرد انتصارات مرحلية مؤقتة، أشبه ما تكون بمحطات استراحة فقط. بينما اتسمت بقية رحلتهم الطويلة بالإخفاق والعجز عن بلوغ العزة، سواء بفهمهم السقيم أو بالفهم الحضاري الصحيح!

لماذا تأخر المسلمون؟

كثيراً ما يتم طرح هذا السؤال: لماذا تأخر المسلمون؟ وفي الحقيقة، يمكن القول بأن طرح السؤال بهذه الصيغة يحمل الإجابة بين طياته! فهو لا يستفهم عن سبب تخلف شعب أو أمة محددة مثل العرب أو الفرس أو الأمازيغ أو الأفغان، بل يستفهم عن سبب تخلف "المسلمين" بكافة أعراقهم وبلدانهم. وكأنه يقول: لماذا يحل التخلف أينما حل الإسلام؟ وعليه، فيمكن أن يكون الجواب بكل بساطة: سبب تخلف المسلمين هو الإسلام!

ولكن ثمة من يقول أن الإسلام ليس سبب تخلف المسلمين، وذلك لأنه غير مُطبَّق جزئياً أو كلياً. وبالتالي، فالسبب الحقيقي لتخلف المسلمين هو عدم تطبيق دينهم بشكل كامل وشامل. ولكن على من يقول بهذا توضيح أسباب بُعد المسلمين عن دينهم وعدم تطبيقه. فالمسلمون يَدَّعون أن الإسلام هو أفضل شريعة ومنهج للحياة، وعليه فيجب سؤالهم: كيف تقولون هذا عن دينكم ثم لا تطبقونه؟! أليس في تطبيقه نهضتكم وتقدمكم كما تدّعون؟! إن المسلمين يتحاشون هذا السؤال، وإذا طُرِحَ عليهم فهم كثيراً ما يُلقُون باللائمة على "الغرب الكافر" الذي يعمل على إبعادهم عن دينهم (وكأنهم مجموعة من العبيد أو المجانين فاقدي الإرادة!).

وبين اتهام الإسلام بأنه سبب تخلف المسلمين وتبرئته من هذا، لنحاول فيما يلي تلمُّس الإجابة على هذا السؤال وعلاقة الدين بالمسألة.

يتكون الإسلام كما أسلفنا[1] من جانبين: نظري وَ عملي. الجانب العملي ينقسم بدوره إلى قسمين:

(١) انظر فصل «مسلمون بلا إسلام» في هذا الكتاب.

١. قسم خاص يتعلق بالفرد وشؤونه الشخصية المعاشة، مثل الأخلاق والتعاملات والعبادات.

٢. قسم عام يتعلق بالمجتمع والدولة، ويشمل العلاقات والارتباطات والحُكم والسياسة والاقتصاد ونحوها.

أما الجانب النظري فيشمل العقيدة وما تحتويه من غيبيّات. وهذه العقيدة تضع تصوّراً وقواعدَ فكريةٍ ينطلق منها المسلم في نظرته وتعامله مع الوجود من حوله. مشكلة هذه العقيدة عدم قبولها للفحص العقلي. فهي أولاً تحتوي على أمور غيبية لا يمكن التحقق منها. كما أنه يتم غرسها في وجدان المسلم بالتدليس والوعد والوعيد وليس بالإقناع والبرهان العقليين. من يؤمن بها ينل نعيم الجنة ومن يرفضها يتعرض للعذاب الأبدي في جهنم، فقط هكذا!

وعلى الرغم من هشاشة هذه العقيدة وسطحيتها للناظر إليها من خارجها، إلا أنها تبدو قوية ومتينة للناظرين إليها من الداخل. والسبب في ذلك يعود إلى سيطرتها على عقل المؤمن ومشاعره، وأيضاً يعود لاستخدامها عدة آليات تضمن بقاءها واستمرارها. فهذه العقيدة تحمي بقاءها في وجدان المؤمن بإغرائه بالجزاء الأخروي (والجزاء الدنيوي أيضاً) إن هو دافع عن إيمانه بها أمام عقله المتشكك أو أمام غير المؤمنين. كما أنها تضمن الاستمرار عن طريق حث المؤمنين (أفراداً وجماعات) على تطبيق الإسلام العملي بصفته أفضل نهج للحياة، وتجعل هذه المهمة أمراً مُلِحَّاً في عقولهم وكأنها وظيفتهم الوحيدة في الحياة، يقول القرآن: قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ الأنعام! أما لضمان تكاثرها وانتشارها، فهذه العقيدة تحث المؤمنين على التكاثر (التوالد) وتعليم أبناءهم الدين، كما تحثهم على دعوة الآخرين إلى الإسلام سلمياً أو حتى بالعنف والجهاد إن استطاعوا. إن العقيدة الإسلامية هنا تشبه الكائن الطفيلي الذي يستنزف المصاب به ويصعب التخلص منه!

مما سبق، نرى أن المسلم المخلِص لدينه لا يستطيع تصوّر الحياة بغير الإسلام. كما أن لديه يقين تام بكون الإسلام هو الطريق الأفضل الذي يجب على البشرية جمعاء السير عليه. فالمعادلة في ذهن المسلم بسيطة، وهي على هذا النحو: **تطبيق الإسلام = حياة جيدة!** وبالتالي، فمتى ما رأى المسلم خللاً في الواقع، فإنه يعزو ذلك مباشرة إلى خللٍ في تطبيق الدين. وهذا ما جاءت به ردود المسلمين على سؤال «لماذا تخلف المسلمون؟» حيث أرجعوا السبب لضعف عقيدة المسلمين (الجانب النظري) وعدم تطبيقهم للجانب العملي من الإسلام. وكانت الحلول التي اقترحوها تهدف أولاً إلى تقوية عقائد المسلمين والعمل على إعادة الإسلام إلى الصدارة في حياة الفرد والمجتمع وتمكينه أيضاً من الحكم. ويمكن الاطلاع على الإجابات التي قدمها المسلمون والحلول التي وضعوها في كتب مثل «لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم» لشكيب أرسلان، و «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟» لأبي الحسن الندوي، وأيضاً في تنظيرات الكثير من الأحزاب والجماعات الإسلامية والمفكرين والدعاة الإسلاميين.

العجيب أن تساؤل المسلمين عن سبب تأخرهم بين الأمم لم يكتسب زخماً ويغدو ملحاً في أذهان المفكرين منهم إلا بعدما تضعضعت الدولة العثمانية ثم انهارت. حيث وجد المسلمون أنفسهم حينها ولأول مرة بلا دولة ولا خليفة! فَلَمْ تدفعهم أوضاعهم الاقتصادية المتردية طوال قرون، أو انعدام التعليم وانتشار الأمراض وفقدان الخدمات، أو تغييب أصواتهم ومصادرة حرياتهم وعزلهم عن شؤون الحكم، لم يدفعهم كل ذلك وغيره إلى التساؤل حول أوضاعهم وطرح الحلول لتحسين حالهم! فلقد عاشوا طوال تاريخهم وهم راضون بما "قسم الله لهم" وصابرون على ما "حَرَمَهُم". طالما يملك الواحد منهم قوت يومه وهو آمن في سربه والصلاة قائمة في المساجد فكأنما حاز الدنيا وما فيها![1] فقط عندما

(١) روي عن النبي محمد قوله: من أصبح منكم آمناً في سربه، معافى في جسده، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا؛ رواه البخاري.

انهارت "دولة الإسلام" انتفضوا وصرخوا مطالبين بإقامتها من جديد واستعادة "أمجادها"! فما هو السبب يا تُرى؟ لنحاول الإجابة فيما يلي!

لقد عرفنا كيف تسيطر العقيدة الإسلامية على وجدان المسلم وعقله من الداخل عند مناقشة الجانب النظري من الإسلام. وكما ورد في فصل «الاستبداد باسم الله» في هذا الكتاب، فإن الإسلام نشأ كحركة سياسية شمولية تستعبد الناس باسم الله لضمان الاستئثار بالحكم والتوسع. لذلك، فعندما يكون للإسلام دولة، فإن أفراد المسلمين، وبوحي من عقيدتهم، يشعرون بالرضى الذاتي إلى حَدٍّ ما. فبما أن هدف عقيدتهم الحقيقي هو بقاء الحكم الإسلامي، فهي تحوي أفكاراً وتشريعات تعمل في هذا الاتجاه، وتؤثر بها على معتنقيها. فهي تُثبِّط المسلمين عن التفكير والمطالبة، وتُخوّفهم من الفتنة، وتَعِدُهُم بالجنة إن هم أذعنوا للدولة وصبروا على جوانب القصور فيها. وطالما بقي الأمر كذلك، فإن العقيدة الإسلامية تَبقَى كعامل تهدئة وتعبيد الناس للحاكم. يقول النبي محمد: أدّوا إليهم [أي الحُكّام] حقهم وسَلُوا الله حقكم؛ صحيح البخاري. وفي ظل حكم مثل هذا، فإنه لا مجال للتطور والتقدم بالطبع.

ولكن عندما يكون ثمة تهديد وجودي للإسلام (الدولة)، فحينها تنشط آليات البقاء والمقاومة الكامنة في العقيدة الإسلامية، وتقوم بدفع المؤمنين للدفاع عن الدين (الدولة). فأفراد الناس في المُحصّلة النهائية للنظرية الإسلامية ليسوا سوى بيادق تُستخدَم لحماية دولة المستبد والدفاع عنها. يقول القرآن: وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴿٥٥﴾ النور. ولهذا السبب امتشق رؤوس المسلمين، من كُتّاب ومثقفين وعلماء، أقلامهم وسَوَّدوا الصفحات الطوال، ونادوا في الناس أن سبب عجزهم وضعف دولتهم ومن ثم زوالها كان بُعدهم عن الدين وعدم تطبيقه

كما يجب. ولذلك أيضاً تأسست الأحزاب الإسلامية بُعَيد انهيار دولة الخلافة. كل ذلك من أجمل العمل على استعادة الدولة الدينية من جديد.

ومن أجل تسويق الدعوة لإعادة الإسلام إلى الحكم وإضفاء بعض العقلانية على ذلك، تم تشويه الوعي العام بوضع رداء من الفضيلة الزائفة على التاريخ الإسلامي. حيث تم تصوير تاريخ الإسلام كمرحلة استثنائية للبشرية. مرحلة تم فيها إنشاء الدولة الفاضلة، وشاع فيها العدل والرفاه، ونَمَت فيها العلوم والفنون، وعاش الجميع في سبات ونبات! بينما من لديه أدنى اطّلاع على تاريخ الإسلام يعرف مدى بشاعته ومقدار الحروب والدماء والدمار والمعاناة التي رافقته طوال تاريخه.

لقد لَقِيَتْ دعوات المنادين لاستعادة الحكم الإسلامي، بعد انهيار الدولة العثمانية، قبولاً سريعاً عند عامة المسلمين، حيث أن تلك الدعوات تتطابق مع العقيدة التي يؤمنون بها في دواخلهم. وعليه، فقد تكَوَّن وعي جمعي لدى عموم المسلمين بأن الهدف الأسمى هو استعادة أمجاد الماضي وإقامة دولة الإسلام، والطريق إلى ذلك هو التقيّد بالدين والعمل وفق تعاليمه على الصعيد الشخصي والعام. لقد احتشد الجميع من أجل إعادة إنعاش ذلك الكائن الطفيلي الذي شارف على الهلاك. والمسلمون يحسبون أنهم بهذا يعملون لصالح أنفسهم في الدنيا والآخرة، بينما هم في الحقيقة يعملون لصالح المستبد المستقبلي المحظوظ الذي سيجعلونه «خليفة» فوق رؤوسهم!

وعلى أي حال، فلقد كان الوضع الدولي الذي أعقب سقوط الدولة العثمانية ونشوء الدول القُطرِية أقوى من عقيدة الإسلام وتعاليمه القادمة من القرون الوسطى. ولذا، فلقد أذعن أكثر المسلمين للواقع بعد مدة من الزمن، وخف صراخهم المطالِب بإقامة «دولة الخلافة». بل وغدونا نسمع بعض المسلمين

يقولون أن الخلافة ليست من الإسلام[1]، وأن المطالبة بها هو نوع من التجني على الدين! فهل كان هذا تراجعاً وتبديلاً للعقيدة الإسلامية؟ كلا، إنه لم يكن تراجعاً حقيقياً ولا تبديلاً جوهرياً! فتحت وطأة الواقع، تم استبدال الدولة الواحدة الشاملة في أذهان المسلمين بالدول المتعددة والمجزأة. ثم تم تجيير آليات الدفاع عن دولة الخلافة الكامنة في العقيدة الإسلامية إلى الدفاع عن الدول المتعددة؛ كُلٌّ يدافع عن دولته التي ينتمي إليها! وبالطبع، فالدفاع هنا ليس المقصود به الدفاع المحمود عن الأوطان، وإنما الدفاع عن الاستبداد المتحكم بتلك الأوطان.

إن التقديس العميق للعقيدة الإسلامية والخوف الكبير من إلهها شديد العقاب مَنَعَ عموم المسلمين من النظر فيها بِتَجَرُّدٍ وحياد. فلم يفكر غالبيتهم في مراجعتها ونقدها. ولم ينظروا في الأسباب الحقيقية التي أوصلتهم للحالة المتردية التي وصلوا إليها. بل لم يفكروا لماذا ابتعدوا هم أنفسهم شيئاً فشيئاً عن تطبيق الكثير من شرائعها! وما دام الحال كذلك، فالمسلمون بطبيعة الحال لم ينشغلوا بابتكار ما هو أفضل من دينهم أو البحث عن مجرد بديل له. ومن حاول منهم عمل ذلك جُوبِهَ بالتهديد والعداء والتكفير. وفي هذا نرى آلية دفاعية أخرى يستخدمها الإسلام مع أي منافس قد يُقصِيه عن الساحة ويَحرمه من السلطة!

لقد تم حصر سبب تأخر المسلمين في عدم تطبيق الإسلام كما يجب، وتم توجيه المسلمين للسير على طريق ضيق نحو العودة إلى تطبيق هذا الدين ولا شيء سواه. لقد تم تعميتهم -بقصد أو بغير قصد- عن المتسبب الحقيقي في تأخرهم طوال قرون. فالإسلام كان هو الحاكم طوال تاريخ المسلمين. كان يحكم عقول الناس وضمائرهم، والأفعال التي تنشأ عنهم. كما كان يحكم مجتمعاتهم ودولهم، فمنه يستمدون شرعية الحكم، وبه يقضون بين الناس، ووفق تعاليمه يُسيّرون الاقتصاد. لقد رسّخ الإسلام الاستبداد ومعه انتشر الفساد وضَعُفَ الاقتصاد

(١) يقولون هذا الكلام حتى بعدما استمرت الخلافة ١٣ قرناً، هو جل تاريخ الإسلام!

وتَرَدَّت الخدمات وانعدم الإبداع وساءت أحوال الناس. كما دَمَّر الإسلام السِّلم الاجتماعي بسبب خلافات وتناحر طوائفه المتعددة. وبسبب عدم تسامح الدين مع مخالفيه وقمعه لحريات الناس، شاع النفاق وانتشر التذمر المكتوم على نطاق واسع. وبعد كل هذا، يأتون يتساءلون بكل بلاهة: ما هو سبب تأخر المسلمين؟!

لقد كانت نتيجة الإسلام النهائية هي ما وجد المسلمون أنفسهم عليه في بدايات القرن العشرين قُبيل سقوط الدولة العثمانية. ولكنهم رفضوا قبول تلك النتيجة، وما زالوا يريدون أن يجنوا من الشوك العنب!

وحتى بعد تنحي الإسلام عن الحكم في بلدان عديدة، إلا أنه ما يزال عامل تأخر وإفساد. فعقيدته النظرية تتحكم بالمسلمين من داخل أنفسهم، وتملأهم بالحسرة على تنحية الدين عن الحكم، وتدفعهم للعمل على استعادة ذلك الحكم، مما يتسبب بالضرر من جهتين. فمن جهة يغدو المؤمن عضو غير فعال في المجتمع، دائم النقمة والتذمر، لا يؤدي دوره ولا يُسهِم بفعالية وإخلاص. ومن جهة أخرى فإن التطلّع لإقامة الدين قد تؤدي لتحركات عملية ينتج عنها الإرهاب والاقتتال.

إن الإسلام في حقيقته ليس سوى أيديولوجيا سياسية هدفها تكوين دولة مستبدة على غرار الدول القديمة، مع التوسع في بسط نفوذها على الأراضي والبلدان. وهو يستخدم عموم الناس كأدوات لتحقيق هدفه فقط. إنه يفتقد لنظرية حكم حكيمة تضع الفرد (المواطن) محور اهتمامها وتصون حقوقه وحرياته وتعمل على تطويره على الصعيد الفردي والأسري والمجتمعي والوطني. وفي ظل غياب هكذا نظرية للحكم الرشيد، كان تأخر المسلمين أمراً محتوماً.

وأخيراً، فالسؤال عن سبب تأخر المسلمين هو سؤال مغلوط أصلاً! فالمسلمون لم يكونوا يوماً متقدمين بحسب معاييرنا الحديثة حتى نسأل الآن عن سبب تأخرهم. فالدولة الإسلامية متأخرة منذ أسسها محمد في يثرب وحتى سقطت

في إسطنبول ثم ظهرت مجزأة بعد ذلك في بلدان متعددة. وطالما بقي المسلمون متمسكين بالعقيدة الإسلامية، متطلعين لإنشاء دولة الإسلام، ومعادين لكل فكرة تعارض الدين، فإنهم سيبقون متأخرين. فالإسلام عبر تاريخه الطويل هو الذي تسبب في تأخرهم، وبالتالي لا يمكن أن يكون هو الحل لتقدّمهم. إنه عاجز عن تطوير الأفراد والمجتمعات والدول وفق المفاهيم الحديثة، وفاقد الشيء لا يعطيه! وإن خلاص المسلمين الحقيقي يكمن في تخلصهم من الإسلام على المستوى النظري (العقائدي) والعملي، ولا شيء سوى هذا.[(١)]

(١) كما ذكرتُ في كتاب «إدراك الوهم»، يمكن أن يحتفظ المسلمون ببعض الملامح التراثية والأدبية من الدين، ولكن لا شيء أكثر من هذا.

بيئة الإسلام الطاردة

قد يكون هذا الفصل امتداداً للفصل الذي حاولنا الإجابة فيه على سؤال «لماذا تأخر المسلمون؟». فلو نظرنا للمجتمعات الإسلامية اليوم، فسنجد أن تماهي الدين مع الاستبداد، وقمعهما لحرية التفكير والتعبير وبقية الحريات الخاصة والعامة، قد صنع مجتمعات معتلة طاردة، وأفراداً غاضبين يحلمون بالهجرة! وكثيراً ما نسمع قصصاً عن علماء ومبدعين عرب ومسلمين استقطبهم "الغرب" ووفر لهم الحياة الكريمة وجعلهم يبدعون لكي يستفيد من إنتاجهم. وبغض النظر عن صحة تلك القصص، إلا أن قائليها ومستمعيها يميلون إلى تصديقها لأنها تبدو لهم منطقية ومعقولة!

ولو تأملنا العبرة هنا، لوجدنا أن احترام الإنسان وصيانة حريته وتوفير والحياة الهانئة له هي عوامل بَدَهيّة للإبداع والإنجاز والنجاح. فإشعار الإنسان بمكانته، وعدم تحقيره أمام نفسه، والنظر في حاجاته بعين الاعتبار، وتيسير سبل السعادة له، والحرص على أمنه، وتحقيق العدالة له، هي من القواعد التي تُبنى عليها المجتمعات الحضارية المتطورة. فالإنسان الحر والمحترم هو حجر الأساس لأي تطور وتقدم حضاري. وأي مجتمع يحاول التقدّم دون توفير الحرية وعوامل الكرامة والسعادة لأفراده، فإنه لن يتمكن من ذلك بشكل عام ودائم. قد يحقق تطوراً نوعياً في مجالات محددة ولفترات قصيرة نسبية، ولكن ذلك لا يدوم طويلاً. ولنا في الاتحاد السوفيتي خير مثال!

ومع ما للعلم من أهمية كبرى في أي تقدم حضاري، إلا أنه ليس القطب الأوحد الذي تنهض عليه الأمم. وكذلك الرخاء الاقتصادي ليس القطب الأوحد للنهضة والتقدم. إن الإنسان هو القطب الأوحد الذي تقوم عليه الحضارة والنهضة والتقدم والرفاه. ومتى ما توفرت للإنسان البيئة المناسبة التي تصون حقوقه وحريته

وكرامته فإنه سيتمكن من العمل والإبداع، وتوفير ما يحتاجه من علوم وفنون وصناعة وغذاء وخدمات إلخ. وبذلك يترقى الفرد ويترقى المجتمع في دروب الحضارة والتقدم.

ولو نظرنا إلى الإسلام، فسنجده يحتقر الإنسان عملياً! فالإسلام يقدّم نفسه على الفرد، فيجعل تطبيقه وقيام دولته هو الهدف الأسمى، أما الفرد فهو مجرد شخص "عامي" عليه السمع والطاعة، والدفاع عن الدين (الدولة)، والقبول بأقل الممكن، والصبر على ما فاته! الإسلام أيضاً يخنق الفرد بالكثير من الواجبات الملقاة على عاتقه تجاه الله والدولة، ويحرمه من التفكير خارج محددات الدين، ويمنعه حتى من الإبداع الفني والترفيه بذريعة "الحرام"!

إن الإسلام لا يوفر البيئة المناسبة التي تصون حقوق الإنسان وحريته وكرامته. وبالتالي، فلا يمكن لأي مجتمع إسلامي، متمسك بتعاليم الدين على الصعيد الشخصي أو العام، أن يتطور. فالناس سيعانون في هذا المجتمع من الضيق والاختناق، وسيشعرون دائماً بالرقابة والحصار. فالله يراقبهم من فوقهم، والملائكة يكتبون عليهم أقوالهم وأفعالهم، والعائلة تخوفهم من العيب والحرام، والمجتمع يمارس عليهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدولة تطالبهم بالسمع والطاعة! إنها بيئة متزمتة ومنغلقة، لا مجال فيها للتلقائية والانفتاح، الكل يحسب فيها عواقب أقواله وأفعاله خوفاً من عقاب لا يدري من أين سيأتيه، أَمِنَ الله أم من الدولة أم من المجتمع أم من الأهل والأقارب!

وفي هذه البيئة المُعْتَلَّة التي يخلقها الإسلام، لن يُجدِي توفر العلوم والأموال في صناعة النهضة بمعناها الشامل. فكما قلنا، الإنسان هو الأساس، وحتى لو توفر العلم والمال، فإن الإنسان المسلوب الحقوق، المسلوب الحرية والكرامة والسعادة، سيبقى غائباً وإن حضر جسداً! فهو لن يعمل ولن يُسهِم إلا بأقل الممكن، دون إخلاص ولا تفان. والسبب يعود لكونه يعاني داخلياً ويتطلع

للخلاص. بل إن توفر المال قد يزيد في معانته، حيث ستتجاذبه حينها رغبتان، رغبة الانعتاق ورغبة الحفاظ على المال! وفي ظل معاناة الأفراد هذه، لن يتطور المجتمع كما ينبغي، بل قد يحدث العكس، وينتشر الفساد وتسود المظالم!

إن المجتمع الذي يصنعه الإسلام هو مجتمع طارد. وسواء تحكم الدين بالمجال العام، أو اقتصر على المجال الشخصي، فإن النتيجة هي واحدة. سيبقى الأفراد في المجتمع يشعرون بالظلم والضيق والرقابة المتواصلة، وإن بدرجات متفاوتة. وسواء كانت الأوضاع الاقتصادية جيدة أو سيئة، أو كان المستوى العلمي والثقافي جيداً أو سيئاً، فإن الخاضعين لسلطة الدين بقناعة ذاتية أو بحكم سلطة خارجية، سيرغبون دائماً بالخلاص والرحيل. الرحيل والهجرة إلى بلاد "الكافرين"، أو الرحيل والوفاة إلى رب العالمين!

الاستبداد باسم الله

يعلن الإسلام بوضوح أن هدفه هو "تعبيد" الناس: وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ الذاريات. ولقد نجح الدين في تحقيق هدفه هذا إلى درجة ابتهاج المؤمنين بالعبودية، وحَمْدِ الله عليها، وتفاخرهم بكونهم مجرد "عبيد"!

إن قوة الدين الحقيقية تكمن في جعل الناس يُقدّسونه ويتبعون تعاليمه بينما هو يقيّدهم ويحد من حرياتهم. إنه يجعل الناس يحاصرون أنفسهم بأنفسهم ويُضيّقون على أنفسهم بأنفسهم! ولقد استطاع الدين النجاح في سلب حرية الناس عن طريق إيهامهم بأن العبودية تعني طاعة إله عظيم موجود في السماء، وأن هذا الإله سيرضى عنهم نظير عبوديتهم له، ويُدخلهم الجنة بعد موتهم ويبعدهم عن النار. بينما هؤلاء الناس لم يروا الإله، ولم يسمعوا منه، وليس لديهم أي وسيلة مباشرة لمعرفة ماذا يريد منهم[1]. كل ما لدى الناس هو كلام يزعم سدنة الدين أنه كلام الإله! وحتى هذا الكلام المنسوب للإله المزعوم غير مفهوم لعامة المؤمنين إلا بواسطة تفسير وشرح أولئك القائمين على شؤون الدين! فما هي نتيجة كل هذا؟ النتيجة الحقيقية هي عبادة الناس واقعياً وعملياً لمن يملكون زمام الدين. ومن هم الذين يملكون زمام الدين؟ إنهم «ولاة الأمر» بنوعيهم: العلماء (رجال الدين) والحُكّام.

كانت الكنيسة في أوروبا القرون الوسطى مستقلة مالياً وسياسياً وعسكرياً عن الملوك والأمراء. حيث كانت الكنائس تملك الأراضي والعقارات التي تدرّ عليها مداخيل مادية هائلة. وكانت تدير شؤونها وتسن قوانينها الخاصة دون تدخل من الحكام. كما كانت الكنيسة قادرة على تشكيل الجيوش وحشد الناس لخوض

(١) البشر لا يملكون حتى وسيلة للتحقق من وجود الإله ذاته، ناهيك عن التحقق من وجود إله هذا أو ذاك!

معاركها الخاصة. كل هذا جعل علاقة رجال الدين بالحكام في أوروبا علاقة الند للند، بل وقد تتفوق قوة رجال الدين نظير ما يملكونه من سلطة روحية (دينية) يتبعها الناس ويرتعب منها الملوك والأمراء. ولهذا كان البابا في روما هو من يبارك تنصيب الملوك الأوربيين، وكان أيضاً يملك حق حرمانهم مما يعني رفع الحصانة الدينية عنهم وتقليل شأنهم بين الناس.

لكن الأمر يختلف في بلادنا الشرقية عما كان عليه الحال في أوروبا القرون الوسطى. فسلطة وقوة رجال الدين المسلمين لم تنافس يوماً سلطة وقوة الحكام. فرجال الدين المسلمين لم يملكوا كياناً أو تنظيماً سياسياً مستقلاً كالكنيسة. ولم يكن لهم موارد مالية خاصة تنافس موارد الحكام. وبالطبع لم يملكوا أسلحة ولا جيشاً خاصاً بهم. لقد كان رجال الدين المسلمين دائماً ضمن الدولة التي تحكمهم. كما كانوا غالباً تابعين للحكّام، والمعارضون منهم كانت معارضتهم محدودة لا تتجاوز رفض بعض قرارات الحاكم أو نقد سلوكه الشخصي. وحتى لو دعا بعض رجال الدين للثورة على الحكام، فإن دعوتهم تلك لا تهدف لتحرير الناس ورفض استبداد السلطة الحاكمة، وإنما تهدف لتبديل حاكم مكان حاكم أو نظام (عائلة) مكان نظام فقط مع استمرار ذات النمط "الشرعي" الاستبدادي من الحكم.

ولكن ما الذي أدى لامتلاك رجال الدين المسيحيين في القرون الوسطى قوة تفوق ما لدى رجال الدين المسلمين؟ الجواب يكمن في اختلاف نشأة وطبيعة كِلا الدينيين. فالمسيحية نأت بنفسها عن السياسة عند نشأتها، حتى شاع عنها مقولة «دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله.» وانعزالها هذا سَمَحَ لها بالنمو بشكل مستقل عن السلطة، وحيازة أسباب القوة من أموال وأتباع شيئاً فشيئاً حتى تعاظمت قوتها في القرون الوسطى. وهذه القوة المادية والروحية أتاحت لها فيما بعد منافسة الحكام والملوك بل والتفوق عليهم في أحايين كثيرة. بينما

الأمر مختلف مع الإسلام. فهذا الدين نشأ وهدفه منذ البداية الاستئثار بجميع السلطات وتأسيس دولة دينية شمولية ذات رأس واحد فقط. فلقد كان محمد هو رأس الهرم في الدولة، وهكذا كان حكام الدول الإسلامية من بعده. فالحاكم المسلم هو القاضي الأول، وهو من يُعيّن القُضاة. والحاكم المسلم هو الجندي الأول، وهو من يملك أمر الجيش. والحاكم المسلم هو القائم على أموال الدولة، وهو من يتصرف فيها. والحاكم المسلم هو الوصي على الدين (بصفته خليفة الرسول) وعليه رعايته ونشره والتكفّل بالمنشغلين به من علماء وطلاب، بل حتى إن رأي الحاكم يرفع (يزيل) الاختلاف في الأحكام الشريعة! ومن هنا نرى أن رجال الدين في الإسلام هم مجرد رعايا من رعايا الحاكم، وليسوا قوة مستقلة كما في مسيحية القرون الوسطى.

وعلى رغم من سلطات الحاكم المسلم غير المحدودة، إلا أنه يعرف أنَّ مَن مَنَحَهُ هذه السلطات والمكانة هو الدين، وأن من يُمثِّل الدين في أعين الناس هم رجال الدين (العلماء). ولذا فلقد حرص الحكام المسلمين -في المُجْمَل- على توقير الدين ورجاله واحترامهم ورفع مكانتهم. وذلك حتى يرى الناس احترام الحاكم للدين والتزامه به، فيقبلون بالتالي سلطته غير المحدودة عليهم. ومن هنا نشأت علاقة نفعية بين الحاكم ورجال الدين المسلمين مُلخّصها: "أنا (الحاكم) أرفع مكانتكم أيها العلماء بين الناس، وأتبع فتاويكم، وأنتم تُضْفُون عليَّ الشرعية الدينية، وتُفْتُون بما لا يتعارض مع مصالحي." والهدف من هذه العلاقة إبقاء الناس راضين بالسلطة الحاكمة، وبالتالي استمرار المنافع والمكانة التي يحصل عليها الطرفين. وهذا قد جعل الإسلام عملياً أقدر على حكم الناس من المسيحية. فهو قد جعل العلاقة بين الحكام ورجال الدين في الإسلام تكاملية وليست تنافسية كما في المسيحية. ولهذا، فالحكام ورجال الدين المسلمين أكثر قدرة وكفاءة على الحكم من نظرائهم المسيحيين. فهم جبهة واحدة، يملكون السلطة الدينية والقوة العسكرية، ولديهم ذخيرة من النصوص المقدسة والتشريعات

التي تعينهم على التعامل مع الناس واعتراضاتهم.

لقد نجح الإسلام في طرح رؤية تجمع بين الحاكم ورجال الدين والمحكومين، وتربط الجميع بالحساب الأخروي، مما يجعل تغلغله في أنفس الناس أعمق، وتشبثه بالسياسة أقوى، وقدرته على الاستحواذ وتهميش غيره أكبر.

التحالف الذي كوَّنه طرفا العلاقة النفعية أعلاه (الحاكم والعلماء) سُمّي بـ «ولاة الأمر» في السياسة الإسلامية. والمسلمون مأمورون بطاعة ولاة الأمر هؤلاء كما جاء في القرآن: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾ النساء. ولو نظرنا بعين التدقيق في الأصناف الثلاثة الذين أمر القرآن بطاعتهم في هذه الآية، لرأينا أن الله ورسوله لا وجود مادي لهم، فالله مجرد كائن خيالي في عقول المسلمين، وأما الرسول فقد مات. الباقون فعلياً هم ولاة الأمر (الحكام والعلماء). ولكن كما رأينا سابقاً، فسلطة الحاكم لامحدودة في الإسلام، وهو يستخدم العلماء فقط كأداة للحفاظ على حكمه. إذاً، فالإسلام يأمر عملياً بطاعة الحاكم فقط، أي إلى استبداد الفرد وهو أسوأ أنواع الاستبداد!

أما لو نظرنا للطريقة التي شرعها الإسلام عند الاختلاف مع الحاكم، وذلك في قوله: فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ، فإننا نجد الإسلام يعزز سلطة الحاكم هنا أيضاً! فالله والرسول ليسا حاضرين للحكم في النزاع أو الخلاف. وبالتالي، فمن سيحكم في النزاع حينها هو قاض شرعي أو عالم إسلامي، وسلطات هؤلاء مستمدة أصلاً من سلطة الحاكم. أي أن الحاكم هو الخصم والحكم معاً في هذه الحالة! ولأن الإسلام أصلاً تأسس كسلطة مستبدة، بحيث تعمل تشريعات الدين على تركز القوة في يد الحاكم، فإن أي حكم يصدر وفق الأحكام الشرعية سيكون في صالح الحاكم لا محالة. وطبعاً نقاشنا هنا هو

بشكل نظري وفي حالة مثالية، وإلا فإن الواقع والتاريخ الإسلاميين يقولان أن لا أحد من الرعية يجرؤ على منازعة الحاكم قضائياً في أمر عام أو خاص[١]، ومن يفعلها فإنه يعلم أنه لن يحظَ بالإنصاف وسيتعرض للأذى. أما منازعة الحاكم بالمعارضة العلنية فإنها طريق للتكفير والقتل، أو الاعتقال في أحسن الحالات!

وبالطبع، فلم تكن العلاقة بين الحكام ورجال الدين (العلماء) طوال التاريخ الإسلامي علاقة ود وصفاء، بل ظهر بينهم تباعد وخصام في أحايين كثيرة. وكان السبب غالباً يعود لنزعة بعض الحكام في الخروج عن الإرث التاريخي لطريقة الحكم الإسلامي التقليدية، التي يرى العلماء أنفسهم أمناء عليها. ومن أمثلة ذلك استبدال بعض التشريعات الإسلامية بتشريعات غير إسلامية، أو استحداث أمر في الإسلام لم يكن موجوداً من قبل، أو حتى استخدام أدوات ومخترعات حديثة في بعض الأحيان![٢]

ينقسم رجال الدين (العلماء) المعارضين للحكام إلى نوعين: معارضون جزئياً، وهم الذين لهم مآخذ على بعض قرارات أو سلوكيات الحكام. وهؤلاء لا يشقون عصى الطاعة ولا يخرجون عن أمر الحاكم، بل يستمرون في تبجيله أمام الناس وتعبيدهم له، ودعوتهم للصبر على أخطاءه، ووعدهم بالمثوبة من الله إن هم فعلوا ذلك! وقد يتجرأ أحد هؤلاء العلماء أحياناً على نصح الحاكم سراً دون إلزام الحاكم بالاستجابة، ثم يشعر بعدها بالرضى عن نفسه وأنه قد أدى الأمانة وقام بما يجب عليه فعله! وبالطبع يستمر هؤلاء العلماء بدعوة الله لإصلاح الخلل بطريقته الغيبية -متى شاء وكيفما شاء!- دون اتخاذ إجراءات عملية وحقيقية

(١) طبعاً بخلاف بعض القصص الدعائية التي يتداولها الوعاظ عن مقاضاة أفراد من الرعية لبعض الخلفاء الراشدين على أمور تافهة وشخصية، مثل أمور البيع والشراء والثياب ونحوها!

(٢) ابحث في التاريخ عن الصراع الذي سببه الحكم بغير ما أنزل الله، كالحكم بالياسق، أو ما سببته نزعة «التغريب» خلال القرن الثامن عشر في الدولة العثمانية، أو ما جوبهت به مخترعات جديدة من رفض مثل الطباعة والتصوير.

لإصلاح ذلك الخلل الذي يرونه.

النوع الثاني من العلماء المعارضين هم الذين يرون سقوط شرعية الحاكم من وجهة النظر الإسلامية. وهؤلاء غالباً لا يُظهِرون معارضتهم هذه بشكل صريح وعلني خوفاً من بطش الحاكم. كما لا يقومون باتخاذ خطوات عملية لإزاحة الحاكم أو محاسبته، متعللين بنصوص شرعية تُحرّم الخروج وتُحذّر من الفتنة والأضرار التي ستترتب على ذلك. وهذا الموقف يُظهر لنا بجلاء تخلف الشريعة الإسلامية! فهي تُركز القوة في يد الحاكم، ولا تعطي الناس طريقة لمعارضته بشكل منظم وحضاري يؤدي للإصلاح دون أضرار وعنف. كما تسن أيضاً تشريعات تُحرّم منازعة الحاكم على الرغم من فساده. ومن يتجرأ ويحاول منازعته فعلياً، فإن عقوبته الشرعية هي القتل، مع الوعيد بالعذاب في الآخرة!

وأياً كان نوع رجال الدين المعارضين، فإن موقفهم كان رجعياً دائماً. فهم يقفون ضد التغيير والتطوير، ويتشككون ويتوجسون من التجربة والتجديد[1]. لقد كانت معارضتهم -ولازالت- سلبية، فقد أسهمت في ترسيخ الاستبداد والتخلف، وبالتالي تأخير المجتمعات والدول الإسلامية.

إن الإسلام يشرعن الاستبداد ويحميه بعدة تشريعات وأحكام كما رأينا. فهذا الدين يجعل طاعة ولاة الأمر من طاعة الله. ولكنه وبطريقة ماكرة لا يقول أن طاعة الحاكم مطلقة بصريح العبارة، بل يقيدها بالتزام ولي الأمر بإقامة شرع الله! أي أنه يحمي المستبد، ثم يلزم الناس بطاعة المستبد طالما المستبد يطبق الدين الذي يحميه! وبذلك يبقى الناس في دائرة لا منتهية، يدورون في حلقة مفرغة وهم يُعبِّدون أنفسهم لولاة الأمر بينما يحلمون بالجنة والنعيم!

وبالإضافة لذلك يحجب الدين الناس عن دائرة صنع القرار، ويحتكر التشريع

(١) ليس المقصود هنا التجديد بالمعنى الإسلامي الذي يعني الرجوع إلى القديم، وإنما المقصود التجديد بمعنى الأخذ بالقوانين والأساليب والأدوات الحديثة.

وسن القوانين، ووفق ما يراه الحاكم فقط! كما يَحرِم الناس من حرية التعبير، ويمنعهم من انتقاد الحاكم مباشرة أو الاعتراض على أوامره وقراراته، أو القيام بمظاهرات سلمية يعبرون من خلالها عن مواقفهم ومطالبهم، ويعتبر كل ذلك تحريضاً وخروجاً على الحاكم. ويبيح للحاكم حينها معاقبة المعترضين عليه بالسجن أو الجلد أو حتى القتل والصلب! إنه يشرعن هذه العقوبات الوحشية لكي يخيف الجميع، ويحمي الاستبداد، ويمنع الناس من انتزاع حريتهم. وبالطبع، يُمارس كل ذلك باسم «طاعة الله ورسوله»!

ولقد حاول المسلمون الإعتذاريون حديثاً تجميل الدين والادعاء بأنه مع الحريات وضد الاستبداد، وأن حكمه يقوم على الشورى الملزمة للحاكم التي هي الشكل الشرعي للديموقراطية! ولكن كلامهم هذا يناقض النصوص الدينية، ويناقض أيضاً ممارسة ممتدة على مدى ١٤ قرناً من الزمن!

وإن من شواهد الاستبداد التي لا يستطيع الإعتذاريون التنصّل منها هو موقف الإسلام من «المنافقين» في المدينة. ففي بيئة الحرية والتعددية والتعايش لا يحتاج الناس للنفاق. حيث سَيُعبِّر الناس عن آراءهم، ويمارسون معتقداتهم دون خوف. وستحترم السلطة ذلك وتتعامل مع الجميع على نحو عادلٍ ومتساوٍ. إلا أن ما حصل في المدينة كان عكس ذلك تماماً. حيث أقام محمد دولة شمولية، تُمَيِّز بين الناس بناءً على معتقداتهم. فلجأ كثير من الناس حينها للنفاق من أجل الحصول على مميزات المسلمين، أو على الأقل من أجل البعد عن الاصطدام مع السلطة المستبدة المتمثلة في محمد وصحابته[1].

كما كان الاغتيال -أو التهديد به- الذي مارسه محمد ضد عدد من معارضيه وناقديه وشاتميه، دليلاً آخر على مدى استبداده ورفضه لأي نوع من المنافسة أو

---

(١) من تناقضات الإسلام تحليله «النفاق» للمؤمنين به إذا أحسوا بالخطر على أنفسهم، بينما هو يعادي المنافقين الذين اضطروا لذلك بسبب خوفهم من بطش الإسلام!

المعارضة أو التعبير الحر. بل حتى إن الأمر بقتل ناقدي محمد قائم ومعمول به حتى اليوم، ولا يقبل المسلمون فيه التوبة أو الكفارة، بل يوجبون قتل المتعدي على "مقام النبوة" مهما كان! فهل يستطيع المسلمون الإعتذاريون إنكار وجود المنافقين في المدينة والأسباب التي أدت بهم إلى النفاق؟ أو هل يستطيعون نفي الاغتيالات السياسية أو أحكام الردة التي قام بها نبيهم؟ بالطبع لا يستطيعون لو كانوا موضوعيين.

وفي الحقيقة، فلقد نجح الإسلام بشكل مبهر في ترسيخ الاستبداد باسم العبودية لله. وحتى الذين يرون الاستبداد الفاقع الذي يرسخه الإسلام، فإنهم يحاولون تبريره بنظرية «المستبد العادل»، التي يصفونها بالنموذج الناجح للحكم ويستشهدون عليها بفترة حكم عمر بن الخطاب أو عمر بن عبدالعزيز! وهؤلاء لا يرون -عمداً أو بغير عمد- مساوئ الاستبداد، كما يتجاهلون أن الاستبداد الذي يأتي بـ "المستبد العادل" سيأتي أيضاً بـ "المستبد الظالم" وهو الأغلب! ومتى ما ابْتُلِيَ الشعب بالمستبد الظالم فإنه سيقف أمامه عاجزاً، فهو مسلوب الإرادة أصلاً ولا يملك أي وسيلة للاعتراض أو التغيير.

إن الذين يريدون مستبداً عادلاً ويقولون «إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن» هم في الحقيقة فاقدو الوطنية والشعور بالمسؤولية، لا تعنيهم الحرية أو الكرامة، ولا يريدون تحميل أنفسهم أي مسؤولية، يريدون أن يكونوا مجرد أتباع لمن يكفيهم العناء ويعطيهم أي شيء وهم مستلقون على جنوبهم! إنهم عاجزون عن رؤية استئثار المستبد بالحكم والثروة، وبطشه بالناس، وعلوه فوق القانون، وبعده عن الرقابة والمحاسبة. وحتى لو رؤوا بعض ذلك فإنهم يتغاضون عنه أو يلتمسون له المسوغات والأعذار، ويُمَنُّون أنفسهم بالمثوبة في الآخرة نظير صبرهم وطاعتهم لله ورسوله!

ومن شواهد نجاح الإسلام في ترسيخ الاستبداد، تجيير أحلام عامة المؤمنين

لصالح المستبدين! فحتى اليوم، نجد المؤمنين يحلمون بعودة "أمجاد الإسلام"، والتي هي في الحقيقة أمجاد للحكام! وذلك لأن المجد والغنى والقوة والسلطة عبر التاريخ الإسلامي كانت دائماً للحكام وعائلاتهم وحاشيتهم حصراً، بينما عموم الناس كانوا فقراء وجهلة، يعيشون حياة صعبة بلا حقوق أو رعاية أو خدمات! فانظر إلى أي مدى هم مخدوعون حتى في أحلامهم!

وحتى لو فكر المسلمون في استبدال السلطة الدينية المستبدة (الثيوقراطية) الجاثمة على صدورهم، فإنهم لا يسعون إلا إلى سلطة مستبدة دينية أخرى! ففي ظل سطوة الدين وتغلغله في نفوسهم، فإنهم يعتقدون أن سبب سوء أحوالهم هو عدم تطبيق دينهم كما ينبغي، وأن الحل كما يرونه هو مزيد من الدين وبالتالي مزيد من الاستبداد. إنهم يطبقون حرفياً قول أبي نواس: وداوني بالتي كانت هي الداء!

إن عبيد الله المؤمنين لا يدركون أنهم فعلياً عبيد للمستبد المتغطي بمظلة الله الموهوم ورسوله المدّعي. ولو استطاعوا التخلص من أوهامهم المقدسة، وفكروا بحيادية وتجرد لعرفوا مدى الخديعة والظلم الذي يمارسه الدين عليهم، ولاستطاعوا حينها التخلص من رِبْقَةِ الاستبداد، واستعادة كرامتهم التي سلبها منهم الدين حينما جعلهم عبيداً، ولنالوا بالنتيجة حقوقهم وحرياتهم.

الإسلام السياسي

ناقشنا في الفصل السابق مشكلة الاستبداد في ظل الحكم الإسلامي التقليدي. وسنناقش في هذا الفصل مشكلة الإسلام حينما ينخرط في العملية السياسية في دولة حديثة يوجد بها أحزاب وبرلمان.

كثيراً ما يرفع الإسلاميون اليوم شعارات تعبوية رنانة تخاطب الجماهير ولكنها جوفاء! مثل: "الإسلام هو الحل" وشعار "الإسلام دين العدل" و "مهما ابتغينا العزة في غير الإسلام أذلنا الله" و "لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها" وغير ذلك. المشكلة أن الإسلام يخلو من تشريعات محددة لتحقيق الكثير من هذه الشعارات، بل إنه يحتوي على تشريعات معاكسة لها! وهذه الشعارات ليست في الحقيقة سوى باب يدخل منه الانتهازيون والطامعون في الحكم[1] لدغدغة مشاعر المسلمين وتقديم الوعود المعسولة لهم بتطبيق دين الإسلام وإقامة دولته العظيمة!

وعلى الرغم من قصور الإسلام الظاهر في مسألة التشريعات، إلا أننا نجد الإعتذاريين المدافعين عن الإسلام يقولون إن خلو الإسلام من آليات محددة لتطبيق شعاراته المرفوعة تمنحه مرونة لمواءمة المتغيرات عبر الزمن. وهذا بالطبع مجرد تبرير لمحاولة تجميل الإسلام وَجَبْر نَقصِهِ. فلو أخذنا مثلاً مسألة الحاكمية لوجدنا الإسلام يؤسس لدولة دينية يحكمها حاكم مستبد، ثم لا يحدد طريقة انتقال السلطة. وهذا النقص المخل يقول عنه المسلم الاعتذاري أنه مساوٍ

(١) يعترض الإسلاميون عندما يتهمهم الآخرون بأنهم طامعون في الحكم، ويقولون: جميع الأحزاب السياسية تريد الحكم فلماذا حلال عليهم وحرام على الإسلاميين؟ واحتجاج الإسلاميين هذا سيكون وجيهاً لو كانت الأحزاب السياسية الأخرى تلجأ للخداع كما يفعل الإسلاميون! فالإسلاميون لا يقولون نحن نريد الحكم من أجل الحكم كبقية الأحزاب، بل يصوّرون أنفسهم كزاهدين في الحكم وإنهم يريدونه فقط من أجل إقامة دين الله وليس لحظوظ أنفسهم وأمجادهم الشخصية!

للديموقراطية! الديموقراطية، التي تضع آليات محددة لانتقال السلطة وفق إرادة الشعب، أصبحت مساوية للانقلابات المسلحة التي يجيزها الإسلام ويسميها "ولاية المتغلب"، أو مساوية لوصيّة الحاكم السابق للحاكم اللاحق والتي يجيزها الإسلام أيضاً! وطالما أن الإسلام يدّعي أنه من عند الله العالم بكل شيء، فَلَمْ يكن يضر هذا الإله لو نبذ الاستبداد بصريح العبارة، وقرر أن كل حاكم مستبد هو حاكم غير شرعي. فالاستبداد لم يكن يوماً حسناً حتى يسكت الإله عنه بحجة مواكبة متغيرات الزمن!

ولو نظرنا أيضاً إلى طريقة الحكم وإصدار القوانين وتفسير التشريعات ومحاسبة الحاكم ومراقبته وطريقة عزله، لوجدنا الخلل في الإسلام أكبر وأشد. وحتى لو وضعنا كل ذلك جانباً وقبلنا بقول الاعتذاريين في كون الإسلام سكت عن هذه التفاصيل لمواكبة متغيرات الزمن، فإننا نتساءل: وأين طرق الحكم التي ابتكرها المسلمون ليواكبوا بها متغيرات الزمن؟ لقد كانت الخلافة المستبدة هي طريقتهم في الحكم طوال تاريخهم تقريباً!

لقد عُرِفَت الديموقراطية من قبل ظهور الإسلام نفسه[١]. ولنا هنا أن نتساءل لماذا لم يتطرق الإسلام للديموقراطية وهي كانت معروفة في زمن محمد؟ إن كثير من المسلمين اليوم قد سئموا الاستبداد ويريدون حكماً ديموقراطياً. حتى أنهم أصبحوا يقولون الديموقراطية لا تعارض الإسلام[٢]. وعلى ضوء هذا الرأي تشكّلت الكثير من الأحزاب الدينية[٣] في الدول الإسلامية الحديثة التي اعتمدت الديموقراطية (ولو اسمياً). ولكن ما هو تأثير نشأة هذه الأحزاب على السياسة

---

(١) عُرفت الديموقراطية في اليونان القديمة (أثينا) وفي الهند قبل الميلاد بخمسة قرون على أقل تقدير.

(٢) هذا تبرير عجيب! فحتى مع معرفة المسلم المطالب بالديموقراطية بصلاحها وفائدتها، إلا أنه لا يقبلها إلا بعد حصولها على "ختم" الشريعة الإسلامية!

(٣) ثمة أسباب كثيرة أدت لتشكل الأحزاب السياسية الإسلامية، مثل حزب التحرير والإخوان المسلمين، ولن أتطرق لهذه الأسباب هنا.

والدولـة الحديثـة؟

إن كانـت الأحـزاب الإسـلامية تريـد تطبيـق الشـريعة، فـإن التشـريعات الإسـلامية مليئة بالأحـكام التـي تخالـف أسـس الـدول الحديثة. فهـي تشـرعن مثلاً للتمييـز بيـن المواطنيـن علـى أسـس دينيـة، حيـث تحتـوي علـى أحـكام وحقـوق وواجبـات تختلـف مـن مواطـن لآخـر بحسـب انتمـاء المواطـن الدينـي. فحـق تولـي الحكـم أو القضـاء مثـلاً مكفـول للمسـلم فقـط. كمـا أن قانـون العقوبـات الإسـلامي (الحـدود) يُفـرِّق فـي العقوبـة بيـن المسـلم وغيـر المسـلم، فعلـى سـبيل المثـال الحكـم بالقصـاص فـي القتـل لا يصـدر إلا إذا كان المقتـول مسـلماً فقـط أمـا الكافـر فلأوليـاءه الدّيـة! وأيضـاً تختلـف الضرائـب بحسـب ديانـة المواطـن، المسـلم يدفـع الـزكاة والكتابـي يدفـع الجزيـة، كمـا يختلـف الخـراج المفـروض علـى الأراضـي باختـلاف ديانـة مالكيهـا. ويجـب أن لا ننسـى أيضـاً أن الإسـلام يقبـل الإسـلام أو اليهوديـة أو المسـيحية مـن مواطنيـه فقـط، ويعاقـب معتنقـي الأديـان الأخـرى واللادينييـن بعقوبـات تصـل إلـى حـد القتـل!

والتشـريعات الإسـلامية لا تكتفـي بالشـأن العـام، بـل تتدخـل فـي تفاصيـل حيـاة الأفـراد، مثـل: معتقداتهـم، وعلاقاتهـم الأسـرية، بـل وحتـى ملابسـهم ومأكولاتهـم إلـخ.! وهـذه الأحـكام فـي حـال تطبيقهـا، ستجعل الدولة تخوض في غير تخصصها، وستتسـبب فـي تأزيـم العلاقـة بشـكل دائـم بينهـا وبيـن الشـعب.

وممـا يزيـد الأمـر سـوءاً أن الديـن يُحـرِّم علـى النـاس نقـده ومعارضـة تشـريعاته، بصفتـه دينـاً مقدسـاً آتٍ مـن عنـد اللـه مباشـرة! ولـو قامـت الأحـزاب الإسـلامية بتطبيقـه فعـلاً، فسـيحدث نفـور بيـن السـلطة والشـعب. حيـث سـيختار النـاس كتـم غيضهـم والصبـر خوفـاً مـن تبعـات المعارضـة والمطالبـة بتغييـر أوضاعهـم وتخفيـف وطـأة تعاليـم الديـن عليهـم. وعندهـا ينشـأ مجتمـع مريـض غيـر قـادر علـى الإنتـاج أو الإبـداع بشـكل جماعـي (النجاحـات الفرديـة تضـل موجـودة بالطبـع)، فتكـون المحصلـة الكليـة للمجتمـع حينئـذ صفـراً أو قريـب مـن الصفـر علـى كافـة الأصعـدة

تقريباً، الاقتصادية والعسكرية والعلمية والفنية.

فكيف ستتعامل الأحزاب الإسلامية الديموقراطية مع هذه الأحكام والتشريعات، وتَحُدُّ من مضارها في دولة حديثة؟ قد تعمل هذه الأحزاب على تأويل (تحريف) التشريعات الدينية، والادعاء أن تلك الأحكام بصورتها التقليدية ليست صالحة لعالم اليوم. كما قد تدّعي أنه قد أسيئ فهمها وأنها ليست من الإسلام الحقيقي! وعلى الرغم من جودة هذا النهج المؤدي لتفريغ الدين من محتواه الضار، إلا أنه تبقى لدينا إشكالية ضمان استمراره، خاصة إذا ما علمنا أن سُلطة النص الديني عند الإسلاميين فوق بقية السُّلُطات. فقد تتراجع تلك الأحزاب عن تأويلاتها بعدما تتمكن من الحكم، وتقول العبارة الشهيرة: اجتهدنا وأخطأنا وخير الخَطَّائين التوابون! ثم تستبدل القوانين الوضعية الحديثة بالتشريعات الإسلامية!

إن النجاح في مجال السياسة الحديثة يعتمد على «شرعية الإنجاز» وهي ما يمكن وصفها بعبارة: تحقيق المصلحة العامة والخاصة وفق أحكام الدستور. فمن ينجح في رعاية الحقوق وصون الحريات وتحقيق الرفاه والأمن وتقديم الحلول لاحتياجات الناس ومشاكلهم هو من يحصل على اختيار الشعب، وبالتالي يستمر في السلطة إلى حين. غير أن دخول الدين على السياسة يفصلها عن المصلحة والواقع ويجعلها مرتبطة بالعقيدة والفتاوى والروايات! وهذه إشكالية كبرى في الفكر الديني عموماً، فهو يقوم على تنحية المصلحة الواقعية، والالتزام عوضاً عنها بما يقرره النص. فإن ثبت النص عند المؤمن التزم به دون التفكير في صلاحية ما يحمله ذلك النص من أفكار ومبادئ وتشريعات. وهذا الإطار الضيق يحرم الإنسان والمجتمع من التفكير خارج النص الديني، والتساؤل حول مدى صلاحية التشريعات الدينية، وعما إذا كان ثمة تشريعات وأفكار أفضل مما تقدمه.

والحكومة الإسلامية قد تستغل وجودها في السلطة وخوف الشعب من مواجهتها في محاولة ترويض الناس للقبول بوضعهم بشكل دائم. وقد تنجح

السلطة في هذا مرحلياً، نظراً لما تملكه من وسائل تأثير فعاله تتمثل في التعليم والإعلام والمنابر. ثم إذا ما ضمنت اقتناع الشعب بأطروحاتها، فإنها ستسعى إلى تغيير الدستور لضمان استمرار الوضع القائم. كما ستسعى الحكومة الإسلامية أيضاً إلى التغلغل في حياة الناس، فتفقد الدولة الحكم الديموقراطي، وتغدو دولة شمولية قمعية، مما سينتج عنه الفشل وعدم الاستقرار.

وبالإضافة لما سبق، فالحكم الإسلامي، حتى وإن كان تحت مظلة الديموقراطية، ينزع لاستبدال المصلحة الدنيوية بالمصلحة الأخروية. فيحكم من منطلق الحرص على مصائر الناس الأبدية، وخوفه عليهم من العذاب بعد الممات! فيطلب من الناس الصبر والتغاضي عن أوجه القصور والخلل في الدنيا، فما عند الله في الآخرة خير وأبقى! وهذا بطبيعة الحال أمر مرفوض في ظل الدولة الحديثة لأنه مدخل للفساد. كما أنه يعارض وظيفة الدولة المحصورة في العالم المادي المُعاش، ولا علاقة لها بما يعتقده الناس في الموت وما بعده. إذ على الدولة الحديثة رعاية مصالح الناس والسعي لإدخالهم جنة الدنيا وليس جنة الآخرة!

ومن جهة أخرى، فإن إقامة أحزاب وجماعات سياسية على أسس دينية هو أمر يضر بعدالة العملية السياسية، وتَساوي الفرص بين كافة التيارات. فالأحزاب الإسلامية تحصل على الأعضاء والمؤيدين والناخبين باستغلال عواطف الناس الدينية. فتنادي مثلاً "بتطبيق الشريعة" أو "الحكم بما أنزل الله" هكذا بدون تقديم رؤى استراتيجية أو خطط اقتصادية أو برامج تنفيذية حقيقية. كما قد تستخدم هذه الأحزاب مخاوف الناس وأوهامهم حول ما بعد الموت، فتقول لهم مثلاً: انضموا لنا وانتخبونا حتى نقيم شرع الله وتنالوا بذلك رضاه وجنته وتبتعدوا عن سخطه وعذابه[١]. وهكذا خطاب يضر بالعملية السياسية وعدالتها، لأن الأحزاب والتيارات غير الإسلامية لا تملك خطاباً ميتافيزيقياً يتلاعب بمخاوف

---

(١) خطابات الأحزاب الدينية قد لا تكون بهذه البساطة والمباشرة، ولكن المقصود هنا هو بيان لسان حال التيارات الدينية وإن اختلف لسان مقالها.

الناس من الموت وأوهامهم عن الجنة والعذاب. كما أن هكذا خطاب يضر بمصلحة الشعب والدولة لأنه يؤثر على الناس، وقد يدفعهم لاختيار الإسلاميين حتى ولو كانوا لا يملكون الكفاءة للحكم، فالمعيار لم يعد الكفاءة والمصلحة بل الرغبة في الجنة والخوف من النار!

وعندما يصل السياسي الإسلامي (سواء كان فرداً أو حزباً) للحكم ويفشل في حل المشكلات ورفع المظالم وتحقيق الرفاه، فإنه سرعان ما يتملص من المسؤولية، وينأى بنفسه عن المحاسبة، ويتذرع بإرادة الله أو بنظرية المؤامرة! فيقول للناس مثلاً: قدّر الله وما شاء فعل! أو يقول: الأعداء في الداخل والخارج يكرهون الإسلام ولذلك هم يعادوننا ويضعون العراقيل في طريقنا لكي لا ننجح لأن نجاحنا هو نجاح للإسلام الذي يكرهونه! ومرة أخرى ينساق المؤمنون البسطاء خلف هذا الخطاب العاطفي والدوغمائي وينخدعون به ويتوهمون أنهم يعانون بسبب الأعداء فقط لكونهم مسلمين!

إن الدين إذا ما خالط السياسة نزع سلطة الرقابة من الناس وأعطاهم بدلاً عنها نظريات المؤامرة والأعذار السطحية والتبريرات الخيالية لأي فشل وخطأ وإخفاق يقترفه السياسي. مما يمنع الناس من تدارك الأمر وإصلاح الخلل والإتيان بمن هم أكفأ للحكم. كما يمنعهم من استخلاص العبرة من الفشل وعدم تكراره مستقبلاً. والفشل في استخلاص العبرة هو ما نراه في تمني أعداد كبيرة من المسلمين اليوم لعودة الحكم الإسلامي لبلدانهم، على الرغم من إخفاق الحكم الإسلامي عبر القرون وفشله في تنمية الأفراد وتطوير الأوطان.

إن عالم السياسة الحديث يمتاز في كل مكان تقريباً بالاضطراب والتوازنات الهشة بين القوى السياسية. وكثيراً ما يبذل الساسة جهوداً كبيرة ويستنزفون الكثير من الوقت لبلوغ اتفاقات وتفاهمات فيما بينهم تؤهلهم لتكوين الحكومات ولاختيار المسؤولين ولتمرير القوانين والمواثيق ونحوها. وفي عالم هش كهذا فإن آخر ما

يريده الناس هو دخول الدين على الخط حاملاً معه كل اختلافاته وصراعاته الموروثة منذ قرون!

إن إقحام الدين في السياسة في دولة حديثة سيكون وصفة جهنمية لزعزعة الدولة والمجتمع، وتوسيع الفرقة والشقاق والصراعات فيما بين فئات الشعب. وسيخلق الدين حينها عداءً عقائدياً ذي صبغة سياسية لا تجبره المصالح ولا التفاهمات، بل يبقى مشتعلاً دائماً لأنه يتغذى من أحقاد وكراهية دينية عميقة في النفوس. وكل مواطن مخلِص تهمه مصلحة وطنه لا يرغب في بلوغ المشهد السياسي في بلده لهذا الحد المتفجر الذي سيتسبب فيه الدين.

وفي المحصلة، نرى أن دخول الدين في السياسة ضار جداً بالدولة الحديثة، سواء بلغ الإسلاميين الحكم أم لم يبلغوه. فالإسلام السياسي:

- يفصل السياسة عن المصلحة ويربطها بنصوص دينية يسعى لتطبيقها دون مراعاة لما سواها.
- يضر بالعملية السياسية وعدالتها وذلك بإقحام جوانب دينية غيبية وعاطفية تؤثر على قرارات الناس وتمنعهم من المفاضلة بين الأحزاب الدينية وغيرها على أسس واقعية وعملية.
- يفاقم من اضطراب المشهد السياسي ويغذي الاختلافات والصراعات بين فئات الشعب.
- يضع الدولة والمجتمع على حافة الخطر لأنه يُسهّل التخلي عن الديموقراطية والعودة إلى أحكام الشريعة.
- يتيح للسياسيين التنصل من وعودهم وتبرير إخفاقاتهم متذرعين بأحكام شرعية أو بنظريات غيبية، مما يحد من سلطات الشعب الرقابية والمحاسبية.

ولو وصل الإسلام السياسي للحكم وتمكن منه فإنه:

- سيرفض التعايش والتعددية ولن يقبل إلا بالسيطرة والتفرّد بالحكم في نهاية المطاف.
- سيضر بالحريات العامة ويشرعن التمييز الديني بين المواطنين.
- سيمتهن حرية الأفراد الخاصة ويتدخل في معتقدات الناس وارتباطاتهم وانتماءاتهم وسلوكياتهم الشخصية مثل اللباس والترفيه والأكل والشراب.
- سيؤزم العلاقة بين السلطة والشعب ويجعلها علاقة خوف وصدود، مما سيؤدي لتدهور الأوضاع على أكثر من صعيد، ومن ثم سيؤدي للفشل والصراع.

وخلاصة القول هي أن أي تجلٍّ إسلامي، مهما كانت طبيعته، في دولة حديثة اليوم محكوم عليه بالفشل لا محالة. فإما أن يلفظه الناس ويرفضونه قبل تجربته، أو تَجري عليه مِقْصلة الديموقراطية وتُنحِّيه عن المشهد بعد تجربته، أو أن يستبد ويتشبث بالحكم حتى يسقط هو والدولة والشعب معاً!



العامل الرئيس الذي أسهم في تطوّر أوروبا كان البيئة التي احتضنت «عصر النهضة» في القرنين الخامس عشر والسادس عشر. فلقد بدأت النهضة هناك من خارج السلطة السياسية، حيث قامت الرأسمالية الوليدة حينها بتمويل الأفكار الجديدة، خاصة مع شيوع الطباعة واستخدام اللغات المحكية في الكتابة. كما شجعت الكنيسة الفنون ورعت الكثير من الأعمال الإبداعية. كل هذا جعل الإبداع والتفكير أمراً طبيعياً ومقبولاً في المجتمعات الأوروبية. ولذا عندما جاء عصر التنوير (من القرن السابع عشر إلى التاسع عشر) بأفكاره الجريئة في مجالات السياسة والدين والاقتصاد، لم تستطع الكنيسة أو الحكومات من الوقوف في وجهه ومنعه من الانتشار.

وفي «عصر التنوير»، حملت الأوراق المطبوعة أفكار التنويريين ونشرتها بين الأوربيين. والأوربيون بدورهم قبلوا تلك الأفكار وأيدوها لأنها كشفت لهم جوانب القصور في حياتهم، والمظالم التي يتعرضون لها، ووعدتهم بحياة أفضل إن هم صانوا إنسانيتهم وأعلوا كرامتهم وتحرروا من الذل والهوان الذي يفرضه عليهم الساسة ورجال الدين. لم تخاطب تلك الأفكار مشاعر الناس وعواطفهم فقط، بل أعطتهم منهجاً متكاملاً ورصيناً، ووضحت لهم الموضع المناسب للدين، ورسمت لهم مسارات واضحة في الفردانية والسياسة والاقتصاد[1]. بل لقد بدت تلك الأفكار التنويرية منطقية ومقبولة حتى عند السلطات الحاكمة حينها، فتبنت بعضها ووضعته قيد التنفيذ.

أما النهضة العربية خلال القرن التاسع عشر فأخذت منحى آخر. فتلك النهضة نشأت واستمرت بشكل أساس نتيجة جهد حكومي، كما حصل في عهدي

(١) راجع مثلاً أفكار آدم سميث في الاقتصاد وجون لوك في القيمة والفردانية والحكم المدني.

محمد علي باشا والخديوي إسماعيل مثلاً. فلم تكن كالنهضة الأوروبية التي قامت بمبادرات فردية ودعم مستقل دون توجيه من سلطة مركزية. لقد تحكّمت السلطات في عصر النهضة العربي (سواء المركزية في الأستانة أو المحلية في البلدان المتعددة) بالتمويل والطباعة، وبذلك استطاعت التحكم بمن يبرز من المفكرين وبما يمكن نشره. المجتمعات العربية كانت عاجزة حينها عن التحرر والنهضة من تلقاء ذاتها، لأنها لم تكن تملك الوسائل لذلك. فجميع مصادر الثروة والتأثير إما كانت مرتبطة بالسلطات الحاكمة بشكل مباشر أو لا يمكن الحصول عليها إلا برضاها وموافقتها. كما أن غالبية الناس، وبوحي من دينهم، لم يروا حاجة أصلاً للنهضة، وذلك على الرغم من سوء حالتهم على جميع الأصعدة، اقتصادياً وسياسياً وصحياً وتعليمياً إلخ.! العامل الوحيد الذي أثر على عامة الناس وجعلهم يستشعرون الخطر هو الضعف الذي كانت تعانيه دولة الخلافة، وذلك بوحي من دينهم كما بيّنتُ في فصل «لماذا تأخر المسلمون». فأفكار النهضة لم تكن مهمة للكثيرين، بقدر ما كانت أهمية الحفاظ على دولة الإسلام بأي طريقة كانت!

رواد النهضة العربية أرادوا أيضاً حرق المراحل، وبلوغ التطور الصناعي والرفاه الاقتصادي دون المرور بعصر التنوير! فلم تتصادم النهضة العربية مع الدين بشكل صريح ومباشر، بل رأت إمكانية أن يكون الدين ضمن الحلم الموعود. لقد التقطت نبتة الخراب بيدها وغرستها في حديقتها الجديدة! ويمكننا تلمّس العذر لمفكري عصر النهضة العربية حيال موقفهم من الدين. فهم أبناء بيئتهم، وكانوا يخاطبون أناساً مؤمنين بالدين حد الثمالة. بعضهم رأى في الإسلام ركيزة أساسية للنهضة، وآخرون لم يروا فيه عائقاً، وآخرون لم يجرؤوا على التصريح بضرورة تنحيته. وعموماً، فلقد كانت تلك تجربتهم الأولى مع النهضة، ولم يسعفهم الوقت لتخفيف لَغْوَاء التقديس عند الناس، وتعويدهم على التفكير خارج صندوق الدين. فتلك كانت مهمة عصر التنوير الذي لم يرَ النور في عالمنا العربي حتى الآن!

لقد فهم كثير من مفكري عصر النهضة العربية قيم وأسس النهضة الحقيقية، وعرفوا أن الحرية والتعايش وضمان الحقوق وتوزيع السلطات والرقابة الشعبية واستقلالية القضاء ونحوها من مبادئ هي الضمانة لنهضة العرب. كان من بين مفكري النهضة من نادى بتلك المبادئ باسم العلمانية، كما نادى بعزل الدين عن الشأن العام وحصره على الشأن الخاص بالأفراد. وهؤلاء لم يفهموا حقيقة الإسلام حينما حاولوا تحجيمه، ولم يدركوا أنه عصي على ذلك! فالإسلام لا يرضَ بأقل من الاستحواذ والسيطرة على الشأن العام والخاص معاً وبالكامل. وهو إما أن يحكم، أو أن يُبقي المجتمع في حالة عدم استقرار إلى أن يحكم! ولقد دلل التاريخ على ذلك، حيث بقيت الجمهوريات العربية في اضطراب وتنازع بين العلمانية والدين، إلى أن جاء الربيع العربي ورأينا محاولة تحقيق حلم "دولة الإسلام" في العديد من الأقطار!

أما إسلاميو النهضة الذين أدركوا مبادئ وأسس النهضة الحقيقية، فقد ضلوا وانحرفوا عندما توهموا أن الإسلام يضمن تلك المبادئ والأسس! لقد قاموا بترديد شعارات جوفاء ودعائية حول الدين، مثل شعارات: حقوق المرأة في الإسلام، ودعم الحريات، وعدم معارضة أفكار الحداثة. إنهم لم ينظروا بعمق في حقيقة الدين وما يرسّخه من ظلم واستبداد على أرض الواقع. لم يدركوا أن الدين في الحقيقة يُفرِغ تلك الشعارات من مضامينها بالكلية بل ويعمل على مناقضتها عملياً. فالدين مثلاً يقول أنه مع حقوق المرأة، بينما نجده يقمع حريتها ويرسخ تبعيتها ويجعلها قاصراً طوال حياتها، ويظلمها في عقود الزواج والحضانة والميراث. يقول أيضاً أنه يؤيد حريات الإنسان وحقوقه، ولكننا نجده يلتف على هذا الشعار، فيمنع حرية العقيدة وحرية التعبير ويشرعن التمييز الديني ويفرق بين الناس أمام القانون وغير ذلك. يقول أنه يفصل بين السلطات، بينما هو يضع السلطة التنفيذية والتشريعية والقضائية في يد "خليفة رسول الله" أو في يد "ولي الأمر الشرعي" ويهمش "العوام" ويصادر أصواتهم. يقول أنه يدعم العلوم، بينما هو

يرسخ أفكار القرون الوسطى المتعلقة بالمجتمع والاقتصاد والفلك والأحياء. ولكل هذا وغيره، لم يصل مفكرو عصر النهضة العربية إلى أس المشكلة، كما لم يتبع عصرهم عصرُ تنويرٍ يصل لذلك الأس ويُعرّيه أمام الناس حتى يَنفضّوا عنه كما حصل في أوروبا.

وحتى لو وُجِدَ مفكرون يستطيعون نقد الدين وبيان مساوئه حينها، فإن أول من كان سيرفض أطروحاتهم هم الناس! فالناس كانوا سيقولون لأنفسهم: لنصبر على ما نحن فيه خير من اتباع أولئك المفكرين الفاسقين فتضيع علينا الدنيا والآخرة. فالناس في عالمنا العربي يثقون بوعد الله ورسوله أكثر من ثقتهم في أنفسهم وفي مفكريهم! وفي ظل ذلك الواقع، لم يجد المفكرون والمجددون الحقيقيون فرصة للظهور ونقد الدين وتشريعات الحكم والمجتمع المنبثقة عنه. فكل من يتجرأ على نقد الدين وجد الحاكم متصدياً له ومن خلفه القضاة والدعاة والناس أيضاً! والجميع يقولون بلسان الحال والمقال: هذا المفكر الزنديق يريد أن يفسد علينا آخرتنا أيضاً، اسجنوه أو اقتلوه!

وعلى الرغم من دور السلطات في نشوء النهضة العربية، إلا أنها لم تكن تتسامح مع الأفكار التي تستشعر خطرها. فلقد منعت واعتقلت كُتاباً ومفكرين تجاوزوا الحدود المسموح بها، كما أن هناك من يشير لاغتيالات تمت بحق بعضهم أيضاً!

وأمام العجز المجتمعي، والسيطرة الحكومية، والرغبة في حرق المراحل، والصراع بين الدين والأفكار الجديدة، خف وهج النهضة العربية، ولم تؤتِ أُكُلها في تطوير العرب. ثم جاء الانتداب والاحتلال الأجنبي الذي أعقب الحرب العالمية الأولى، وما تبعه من قيام الدول القُطْرية غير المستقرة والاستبدادية، فانتهت النهضة تماماً، وقُطِع الأمل في قدوم عصر الأنوار الذي كان سيحرر العرب من أنماط القرون الوسطى ويمنحهم فرصة تكوين معالم حضارتهم الجديدة، على

غرار ما حدث في أوروبا. وعليه، فلقد بقي العرب يتخبطون، فقراء فكرياً، حائرون بين ما عند الغرب وما عند الله!

ما بعد الصحوة

تشهد المجتمعات الإسلامية اليوم نكوصاً عن الأفكار الدينية المتشددة التي لازمتها منذ ثمانينات القرن العشرين (~١٩٨٠م) وحتى أواسط العقد الثاني من القرن الحادي والعشرين (~٢٠١٥م) تقريباً، وهي الفترة التي تُعرف في بعض البلدان باسم «الصحوة الإسلامية». ويمكن عزو هذا التراجع للمد الديني إلى الأسباب التالية:

١. فشل الربيع العربي، الذي سعت من خلاله الشعوب العربية (في المجمل) إلى تحقيق حلمها القديم بإزالة حكامها المستبدين وتطبيق الشريعة التي ستحقق التطور والرفاه. ولكن تلك التجربة انتكست، وعادت على الشعوب بالخراب. فتردت الأوضاع الاقتصادية، ونشبت صراعات مسلحة في بعض البلدان كان للإسلاميين اليد الطولى فيها. ولقد أيقظت هذه التجربة المريرة الكثيرين، وقطعت أحلامهم الدينية الوردية، فغدوا يَرون مضار الدين عند مخالطته للسياسة، وكيف أنه عاجز عن تحقيق الشعارات البراقة التي طالما دغدغ الدعاة والخطباء والجماعات والأحزاب الدينية أسماعهم بها طوال عقود.

٢. التغيرات السياسية، حيث لم يعد دعم التيار الديني يحقق مكاسب سياسية للحكام، بل أصبح حملاً ثقيلاً عليهم في بلدان عدة. ولذا، انقلبوا عليه واستخدموا أدواتهم (التعليم والإعلام والمنابر) لتهميشه وإقصاءه شيئاً فشيئاً عن الحياة العامة.

٣. شيوع الإنترنت، وخاصة وسائل التواصل الاجتماعي التي حلّت محل الصحف، وخدمات الفيديو عند الطلب (مثل يوتيوب ونيتفليكس) التي حلت محل التلفزيون والسينما، وأيضاً توفر عدد كبير من الكتب للتحميل

والقراءة في أي مكان[١]. كل هذا أعطى المتلقي العربي، وخاصة الشباب، وسيلة حرة -إلى حد ما- للتعرّف على الأفكار والرؤى التي حُرِمَ منها الجيل السابق. كما أصبح لكل فرد القدرة على المشاركة والنقاش وتكوين رأيه المستقل دون إملاء وفرض من أحد. وفي ظل بيئة الانفتاح هذه، فقدت الأفكار الدينية جزءاً كبيراً من حمايتها، وأصبحت كالحِمى المستباح يرتع فيه من يشاء. مما عَرَّاها وأظهر ضعفها الحقيقي الذي كان مستتراً خلف أسوار الهيبة والخوف.

ومع أن هذا الانفتاح وما صاحبه من تراجع للفكر الديني هو أمر جيد ومُبَشِّر، إلا إن ثمة إشكالية لا يتنبّه لها كثيرون! فهناك قاسم مشترك بين فترتنا الحالية والفترة التي سادت فيها الأفكار الدينية، وهذا المشترك هو استمرار الاستبداد وغياب الحرية! ولهذا نجد تشابهات عديدة بين الفترتين.

فمع انتهاء الصحوة الإسلامية رسمياً بمعاداة السلطة لها صراحة والتعهد بتدميرها علانية، وبتراجع واعتذار عدد من رموزها عن الأفكار "المتشددة" التي روجوا لها في الماضي[٢]، بدأنا نلمس التشابه بين بدايات الصحوة وبدايات المرحلة الجديدة! فقديماً، مدحت السلطة الصحوة وأثنت عليها، ورعت رموزها، وصنعت منهم أئمة الهدى وعلماء الأنام، وأطلقت أيديهم لنشر أفكارهم والتبشير بها بطريقة مباشرة أو غير مباشرة[٣]. وهذا ما يحدث في هذه الفترة أيضاً! حيث

---

(١) وللأسف، فشيوع تحميل الكتب الإلكترونية لم ينعكس إيجاباً على مبيعات الكتب في العالم العربي، والسبب يعود لكون كثير من القراء يحصلون على ملفات منسوخة أو مصوّرة من الكتب، في مخالفة صريحة لحقوق الملكية الفكرية. وآمل أن يتحسن الوضع قريباً، مما يؤهل لحدوث نهضة حقيقية في مجال التأليف.

(٢) انظر مثلاً لاعتذار الشيخ «عائض القرني» سنة ٢٠١٩، ونكوص عدد من "المشايخ" قبله عن أفكارهم القديمة مثل: سلمان العودة، عادل الكلباني، صالح المغامسي.

(٣) الطريقة غير المباشرة كانت بغض الطرف عن نشاطات الإسلاميين المستقلين.

يتم صناعة رموز المرحلة الجديدة، وجعلهم منارات التنوير وقدوات التطور.

تشابه آخر بين الفترتين هو استخدام السلطة لذات الأدوات من أجل نشر وترسيخ ما تريده في وعي الناس، وأعني بالأدوات الإعلام[١] والتعليم والمنابر. وأيضاً استغلال نشاط المتحمسين الذين يعملون بشكل مستقل وغض الطرف عنهم. أما الدين وشيوخه فهم الحاضرون دائماً لأنهم من أهم أدوات التحكم في الشعوب المؤمنة.

التشابه الثالث نجده في قمع المعارضين أو منعهم وتخويفهم من المعارضة علانية، ومن يتجرأ تعاقبه السلطة ذاتها أو تتركه لعقوبة المجتمع، من تشهير وشتم وتحقير وسخرية ونحو ذلك.

التشابه الرابع هو تجيير ما يحدث للدعاية للسلطة وتثبيت أركانها. ففي مرحلة الصحوة، أظهروا السلطة كحاملة لواء الشريعة وقامعة البدع وحامية حمى الدين. والآن يظهرونها كمنقذة الناس من التشدد وراعية الترفيه ومصدر سعادة الناس!

التشابه الخامس هو انقياد جموع غفيرة من الناس خلف ما يُراد لهم. ففي بداية الصحوة قالوا لهم تدينوا، فتدينوا بكل إخلاص! واليوم يُقال لهم ارقصوا، فيرقصون بكل سعادة! في الأولى قالوا لهم إن الله لا يحب الفرحين، واليوم يقولون لهم ديننا دين الفرح والسعادة، وفي كلتا الحالتين نجد كثيراً من الناس موافقين ومنقادين تماماً!

أما الفرق الأبرز بين فترة الصحوة وما بعدها فهو غزارة طرح الصحوة الفكري، لأنه كان يستمد من مَعِين ديني ضخم تم بناءه على مدى قرون طويلة، وله طلاب ودارسين ومنظرين في المجتمع. ولقد أدى هذا حينها لاستجابة الناس السريعة،

(١) في هذه الفترة تم إضافة الإنترنت ووسائل التواصل الاجتماعي إلى وسائل الإعلام التقليدية من إذاعة وتلفزيون وصحف.

والتزامهم الديني عن قناعة وإخلاص! أما فترة ما بعد الصحوة فلا تملك مثل هذا المَعين الفكري، ولكنها استبدلته بتقديم الترفيه والوعد بحياة سهلة وسعيدة. ولقد أدى هذا الإغراء للتعويض -نوعاً ما- عن غياب الرصيد الفكري لما بعد الصحوة، وجَعَلَ أعداداً كبيرة يصعدون القطار المتأهب للانطلاق، وخاصة من الشباب. وفي ذات الوقت، قام الشيوخ والدعاة بطمأنة الناس وإخبارهم بأن متعتهم في الدنيا لن تَجُرَّ عليهم العذاب في الآخرة، بل سيبقون مسلمين، وسيكون مصيرهم الجنة بإذن الله. فبدت الصحوة وكأنها قد قالت للناس: عيشوا عذاب الدنيا لتنالوا نعيم الآخرة، بينما فترة ما بعد الصحوة تقول لهم: عيشوا نعيم الدنيا ولن تنالوا عذاب الآخرة! فكانت صفقة رابحة بالنسبة للكثيرين، فتخلوا عن التزامهم السابق والتحقوا بركب المترفّهين. ومن بقي على التزامه، فمن المتوقع أن يغير قناعاته لاحقاً، أو أن يضيع في الجموع فلا يغدو لصوته أي تأثير، أو أن ينكفئ على نفسه وينعزل ويقبض على دينه كأنما يقبض على جمر حتى يحين الأجل!

هذا، ولقد سمعتُ من يقول أن تأثير الفتوى الدينية انتهى في فترة ما بعد الصحوة، وخاصة في أوساط الشباب، وبالتالي فقدت السلطة أداة قوية للتأثير على الناس. ويبدو أن قائل هذا الكلام لا يعرف أن أهم وظائف الدين هي التحكم بالشعوب، وأنه لا يمكن لسلطة تمتلك هذه الأداة أن تفرط فيها بسهولة. نعم تأثير الفتوى الدينية انخفض كثيراً وقد يكون اختفى في بعض الأوساط، ولكن هذا التأثير لم ينتهِ تماماً وإلى الأبد! فالسلطة تعرف أن بإمكانها استعادة تأثير الدين في أي وقت طالما بقي الناس يؤمنون بالدين ويخافون الله والعذاب بعد الموت. فبمجرد حملة علاقات عامة، تستخدم فيها السلطة المنابر والإعلام لتذكير الناس بما بعد الموت وعذاب الآخرة، سيمكنها إرجاع الناس للدين، والانصياع مجدداً لتعاليمه وفتاويه! أي بمعنى أنه يمكن استعادة الصحوة في أي وقت طالما توافر شرطان: إيمان غالبية الناس بالدين، وبقاء أدوات التأثير في الرأي العام بيد السلطة. وعليه، فلا يمكن القول أن تأثير الفتاوى انتهى، إلا إذا أهمل الناس الدين

واعتبروه مجرد تراث ثقافي أو إذا انتشرت حرية التعبير وأصبح بالإمكان نقد أي شيء وبيان حقيقة كل شيء. وطالما لم يتحقق ذلك، فلا يغتر البعض بفترة ما بعد الصحوة كثيراً، فمازال وميض جمر الدين مشتعلاً تحت الرماد، ويمكن إضرام النار منه بسهولة، على الأقل في المرحلتين القصيرة والمتوسطة!

ولا ننسى أن الصحوة المنصرمة لم تكن أول الصحوات! فلقد عرف التاريخ تمددات وانحسارات عديدة للتشدد الديني. ومن قرأ التاريخ عرف فتنة الخوارج ومعارك الحنابلة وغيرها. ولقد لازم التشدد ظهور الوهابية، ثم انحسر بعد انتهاء الدولة السعودية الأولى. ثم عاد مع بداية تأسيس الدولة السعودية الثالثة، وانحسر بعد قيام الدولة وبدء مرحلة البناء. ثم تجدد مع أحداث جهيمان والجهاد في أفغانستان، وها هو يعود للانحسار مجدداً. إن التشدد يشبه الموجات الكهرومغناطيسية منخفضة التردد، والتي يُقاس طولها الموجي بالعقود من السنين! فهناك صعود يعقبه هبوط ثم يعقبه صعود وهكذا. فكلما تهيأت الظروف ودعت الحاجة للتشدد، تم بعث الحياة في نصوص الدين، وتمت التعبية، واحتشدت الجموع. وعندما تنتفي الحاجة وتغدو مضار المتشددين أكبر من منافعهم، يتم تفريقهم، وتفريغ أدمغتهم من الأفكار المتشددة طَوْعَاً أو كَرْهَاً!

بعد انقضاء الحقبة الاستعمارية العسكرية، سعى مستعمرو الماضي (ومعهم الولايات المتحدة كقوة جديدة صاعدة) لخلق مناطق نفوذ لهم على مستوى العالم، وذلك من أجل توسيع تحالفاتهم ضد أعداءهم المحتملين، وإيجاد مصادر للطاقة والخامات، وفتح أسواق جديدة لمنتجاتهم وسلعهم. ومناطق النفوذ هذه تتعزز كلما كانت الدول الواقعة ضمنها ضعيفة داخلياً[١] ومحتاجه للدولة المُهَيمِنة. فالدول الضعيفة داخلياً لا تشكل تهديداً عسكرياً، كما أنها ليست منافساً على منطقة النفوذ. الدول الضعيفة داخلياً تحتاج أيضاً لحلفاء يحمونها من التهديدات الخارجية والتهديدات الداخلية[٢]. يُضاف إلى ذلك أن الدول الضعيفة داخلياً غالباً ما تكون متخلفة علمياً وصناعياً، لا تستطيع إنتاج ما يسد حاجتها، وبالتالي تكون سوقاً مفتوحاً للبضائع الخارجية.

من الطبيعي أن تعمل القوة المهيمنة على إبقاء منطقة نفوذها في درجة أدنى منها عسكرياً واقتصادياً، فلو استقوت الدول في منطقة نفوذها، فإنها قد تخرج عن السيطرة، كما قد تنشئ تحالفات منافسة خاصة بها[٣]. وثمة طرق كثيرة يمكن للقوة المهيمنة استخدامها لإبقاء الدول ضمن منطقة نفوذها في حاجة

(١) الدول الضعيفة داخلياً تختلف عن الدول الضعيفة خارجياً. فقد تكون الدولة ضعيفة خارجياً بالمقياس العسكري، ولكن جبهتها الداخلية قوية، وهكذا دولة يصعب تطويعها ضمن منطقة نفوذ لقوى كبرى. قد تنخرط في تحالفات، ولكنها لن تكون مجرد تابع في منطقة نفوذ.

(٢) التهديد الداخلي في الدول الاستبدادية يتمثل في: المنافسين الطامحين للسلطة، وفي جموع الغاضبين من تردي أحوالهم المعيشية بسبب الظلم في توزيع الثروة. وفي الدول الدينية، يكون هناك أيضاً تهديد داخلي آخر من المنافسين الدينيين الذين يريدون تطبيقاً أفضل للدين.

(٣) قد تفشل الدولة المهيمنة في السيطرة على أي دولة خاضعة لنفوذها. فالدولة المهيمنة ليست إلهاً مطلق القدرة كما قد يتصور البعض. هي مجرد دولة بشرية قد يعتريها الخطأ والنقص. والدولة الضعيفة هي أيضاً دولة بشرية باستطاعتها فعل ما فعله الأقوياء حتى تكون مثلهم.

دائمة لها. ومن أفضل تلك الطرق دعم عوامل الضعف الكامنة في تلك الدول. فهذه الطريقة لا تحتاج لمجهود كبير من الدولة المهيمنة، كما أنها لا تثير الريبة في العادة، كون تلك العوامل موجودة تاريخياً منذ ما قبل مجيء القوة المهيمنة.

لقد جَرَّبت أوروبا الدين وعرفت مساوئه. فقد عانت من الجهل والفقر الذي سببه لها طوال القرون الوسطى. كما جربت الصراع الذي أشعله الدين بعدما نشأ المذهب البروتستانتي وتصادم مع الكاثوليكية. الأوروبيون أيضاً اكتسبوا خبرات من فترة الاستعمار، ورؤوا كيف تؤثر الأديان في الشعوب التي احتلُّوها. ومن هذه التجارب والخبرات، عرف المفكرون والساسة الأوروبيون أن الدين عامل مؤثر وقوي لنشر الاستبداد وإثارة الصراعات، وبالتالي فهو عامل مهم في إضعاف الأمم من الداخل. وعليه، فيمكن استخدام الدين كأحد أدوات إضعاف الدول، وجعلها منطقة صالحها للنفوذ متى ما توفرت الشروط الملائمة لذلك.

لطالما كان الشرق الأوسط منطقة نفوذ نموذجية في أعين الدول الكبرى. فدول المنطقة متخلفة سياسياً واقتصادياً وصناعياً، مما يجعلها ضعيفة وغير قادرة على المقاومة، وفي حاجة دائمة للدعم الخارجي. كما تمتاز غالبية شعوب هذه الدول بإيمانها العميق بالدين، مما يجعل دعم الحركات والتيارات الدينية في المنطقة مقبولاً ومرحباً به، وبذلك يتوفر عامل تقويض دائم يعزز من تواجد القوى المهيمنة. يضاف إلى ذلك، أن قرب الشرق الأوسط جغرافياً من أوروبا مع إيمان كثير من الناس فيه بفريضة الجهاد، يجعل السيطرة عليه وإضعافه مهمة استراتيجية للدول الأوروبية من أجل اتِّقاء شَرِّه. وبعد اكتشاف النفط، زادت أهمية الشرق الأوسط كمصدر للطاقة الخام الرخيصة، وكأداة للتحكم بالاقتصادي العالمي.

وبناءً على ما سبق، فلقد استخدمت القوى الغربية الدين كأحد أدواتها لبسط نفوذها على منطقة الشرق الأوسط، وخاصة في البلدان المحورية في المنطقة. ومن الشواهد على ذلك، ما قدمته بريطانيا من دعم لإنشاء دولة دينية سنية في

الجزيرة العربية، وتولي أمريكا مهمة رعايتها بعد ذلك. كما دعمت فرنسا إقامة دولة دينية شيعية في فارس على حساب دولة الشاه العلمانية. فرنسا سعت أيضاً لإقامة دولة مسيحية بالكامل في لبنان، وعلى الرغم من عدم نجاح مساعيها إلا أننا نرى كيف تُمزِّق الطائفية لبنان اليوم. كما سعت الدول الغربية لدعم التوجه الديني في كل من مصر وسوريا[١]. ومؤخراً، رأينا كيف خرجت الولايات المتحدة من العراق وخلَّفت وراءها دولة شبه دينية تسيطر عليها الأحزاب الشيعية.[٢]

القوى الغربية دعمت أيضاً اليهود لإنشاء وطن قومي/ديني في منطقة الشرق الأوسط. فقد مهدوا لهم الأرض خلال فترة الانتداب البريطاني على فلسطين، وسهلوا لهم الانتقال إلى هناك تحت حمايتهم. ولقد حققوا من ذلك مكاسب على أكثر من صعيد. فالأوروبيون نقلوا الكثير من اليهود خارج قارَّتِهم العجوز، وكان ذلك إنجازاً لاعتبارات تاريخية واجتماعية داخلية[٣]. الداعمين لإقامة إسرائيل كسبوا أيضاً رضى اليهود من أصحاب رؤوس الأموال والمتنفذين في الشركات

(١) سعت الدول الغربية لدعم الإسلاميين في مصر وسوريا، ولكن لأن الدولتين مثلتا قطبي النهضة العربية ومحوري الحركات القومية، فإن الأفكار الدينية وجدت فيهما بعض المقاومة، وبالتالي لم تتمكن الدول الغربية من فرض الدين فيهما بشكل عام كما حصل في أقاليم أخرى. ومن الشواهد، دعم بريطانيا للإخوان المسلمين في مصر، وتأييد أمريكا للضباط الأحرار في انقلاب ١٩٥٢م مع علمها بتحالفهم مع الإخوان المسلمين. الدول الغربية دعمت أيضاً إخوان سوريا و"المجاهدين" خلال الحرب الأهلية التي اندلعت إبان الربيع العربي سنة ٢٠١١م.

(٢) لم تكتف الدول الأوروبية بالأنظمة الدينية القائمة في المنطقة، بل استضافت على أراضيها أعداداً كبيرة من الناشطين وممثلي الأحزاب والجماعات الدينية المعارِضة، ومن أمثلتهم: جماعة الإخوان المسلمين وحزب التحرير المعارضين لمصر والأردن وسوريا، الأحزاب الشيعية المعارضة للبحرين والكويت، السلفيين المعارضين للسعودية ومصر وباكستان، وغيرهم. وهؤلاء المعارضون يشكلون احتياطاً استراتيجياً! فقد تدعو الحاجة لهم عندما يتضعضع نظام ما في الشرق الأوسط، فيكون البديل "الإسلامي" الذي يُرضي الجماهير جاهزاً، ولقد رأينا هذا يحصل قبيل حرب العراق سنة ٢٠٠٣م. ولابد من التنويه إلى أن الإسلام الراديكالي (الجهادي) يحظى بالدعم هو أيضاً بعض الوقت عندما يكون هناك حاجة له، ولكن لا يُسمح له بتكوين دولة، بل يُقضَى عليه سريعاً، ولقد رأينا هذا في القضاء على «إخوان من طاع الله» وعلى «الأفغان العرب» وغيرهم من جماعات.

(٣) ابحث عن «المسألة اليهودية» في أوروبا خلال القرنين التاسع عشر والعشرين.

والحكومات، حيث حققوا لهم حلماً تاريخياً مقدساً، وقدموا لهم ما يمكن اعتباره تعويضاً عما قاسوه منذ الشتات المزعوم وحتى الحرب العالمية الثانية. والأهم من هذا وذاك، أن القوى الغربية قد عززت منطقة نفوذها في الشرق الأوسط، وذلك عبر إضافة دولة دينية أخرى إلى المنطقة، وخلق عامل اضطراب جديد، وزيادة شعور التهديد الخارجي لجميع الأطراف هناك.

القوى الغربية لم تدعم قيام إسرائيل بسبب إيمانها بالتوراة والوعد المقدس للنبي يعقوب (إسرائيل)! ولكن كأي خطة استراتيجية، احتاجت الدول الغربية "شعاراً تسويقياً" لتبرير قيامها بما قامت به! واللافت في الأمر أنها استخدمت التبرير الديني من ضمن المسوغات التي قدمتها لدعم إسرائيل. وإنه من الغريب فعلاً أن تتبنى دولاً "علمانية" طرحاً دينياً بشكل علني على هذا النحو!

الإسرائيليون أيضاً، وعلى الرغم من الادعاء بأن دولتهم علمانية[(١)]، يستخدمون الحجة الدينية لتبرير أحقيتهم في أرض فلسطين وإقامة دولة "يهودية" عليها! وهم لا يجدون أي حرج في هذا، فنجد رئيس وزراءهم مثلاً يقف على منصة الأمم المتحدة ويصرح بحقهم التاريخي التوراتي في أرض إسرائيل!

إن استخدام الدين في السياسة يُعد أمراً مستهجناً على الصعيد الدولي. فكل الدول المتحضرة في العالم اليوم هي دول علمانية، لا تستند على الدين في سياساتها الداخلية أو الخارجية. فعلى مستوى الدبلوماسية الدولية، وفي عالم يحتكم للقانون الدولي وترعاه الأمم المتحدة، يُعتبر الدين نمطاً بدائياً لممارسة السياسة، كان سائداً في العصور القديمة، ولا مجال له اليوم. فلن يسمح رئيس وزراء اليابان لنفسه مثلاً أن يعتلي منصة الأمم المتحدة للمطالبة بأجزاء من الصين

(١) أقرّت إسرائيل عام ٢٠١٨ قانون "يهودية الدولة". إسرائيل لا تعُد هذا نكوصاً على مبادئ العلمانية لأنها تعتبر اليهودية "قومية" أكثر من كونها "ديناً". وبالطبع هذا الادعاء عارٍ عن الصحة، كون اليهود لا ينتمون إلى عرق أو إثنية واحدة، أو حتى متقاربة. كما يمكن لمن هو غير يهودي ومن أي إثنية كانت أن يعتنق الديانة اليهودية (وإن كان هذا بصعوبة إلا أنه ممكن)!

أو كوريا لأن كتاباً يابانياً عمره ألف سنة يتضمن وعد الإله لليابانيين بتملك تلك الأراضي! ولكن المسؤولين الإسرائيليين يقومون بذلك اليوم!

وباستنادها على الحق الديني، أعطت إسرائيل العرب فرصة لدحض مزاعمها على الصعيد السياسي وأمام الرأي العام العالمي، وبيان مدى تخلفها وتهافت حججها. ولكن العرب، وللأسف، لا يستطيعون استغلال هذه الثغرة عند إسرائيل، وذلك لأنها موجودة عندهم أيضاً! فهم بدورهم يتبنون خطاباً دينياً لمواجهة إسرائيل والمطالبة بحقوقهم! وهذا جعل القضية الفلسطينية -في جانب منها- تبدو كموضوع جدل ديني بين طرفين متخاصمين، وهذا النوع من الجدل لا يأخذه العالَم بجدية، لأنه غير منتهٍ، ولا يمكن الوصول من خلاله إلى نتيجة محددة. وبما أن العرب عاجزون عسكرياً عن استرداد فلسطين، فهم لا يدركون أن استنادهم على طرحهم الديني الخاص يُضعِف موقفهم أكثر. لقد كان من الواجب على العرب الظهور بمظهر الطرف الأكثر تحضراً ونضجاً، والمطالبة بحقوقهم في فلسطين، من على المنابر الدولية والمحلية، من وجهة نظر إنسانية وحقوقية فقط، مع الاستهزاء والاستخفاف بالطرح الديني الإسرائيلي، وبيان مدى تهافته وظلمه.[١]

إن إسرائيل تبني أحقيتها التاريخية في أرض فلسطين على وعد إلهي ورد ضمن كتاب اليهود المقدس! فهل ثمة طرح أسخف من هذا للمطالبة بأي شيء! هل يحق لأي أمة أن تكتب في كتابها المقدس ما تريد، ثم تفرضه على الآخرين! فلو وجد شخصاً ورقة كتبها أحد أجداده يدّعي فيها ملكيته لبيت جاره، فهل يحق ل للحفيد الاستيلاء على بيت الجار استناداً على تلك الورقة التي لا يصدقها غيره؟! ولكن هل يمكن للمسلمين محاججة إسرائيل هنا بينما هم يؤمنون بالقرآن ويستخدمونه في مطالبتهم بإسرائيل؟ بالطبع لا يمكنهم! وذلك لأن القرآن نفسه

(١) العرب يطالبون بحقوقهم في فلسطين إنسانياً وحقوقياً، ولكنهم يستخدمون أيضاً الحجج الدينية، وهذا يُضعف من موقفهم. فالخطاب الديني يجعل الناس يظنون أنه هو الأساس، وأن المطالبات الإنسانية والحقوقية غير حقيقية، وهدفها فقط تمرير الأمر على غير المؤمنين!

يقرر منح فلسطين للإسرائيليين! فهو يقول:

- يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿٢١﴾ المائدة
- وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا ﴿١٣٧﴾ الأعراف

وبالطبع لا يُقِرّ العرب بالمعنى المباشر للآيات التي يعطي فيها الرب "الأرض المقدسة" لليهود، ويقولون أن الإله تراجع عن منح تلك الأرض للإسرائيليين، بسبب ذنوبهم وعصيانهم. وفي المقابل، قام الإله بمنح المسلمين الأرض جميعاً! وذلك بحسب أقواله التالية:

- وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾ الأنبياء
- إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ الأعراف

العرب يدَّعون أيضاً أحقيتهم في مدينة القدس خاصة بسبب إسراء نبيهم محمد إليها على ظهر دابة بين البغل والحمار اسمها «البراق»، ومن القدس عرج إلى السماء لمقابلة الإله! وبمثل هذه الحجج المضحكة يشن العرب واليهود حروباً ضد بعضهم البعض، ويقتلون بعضهم البعض. إنهم فعلاً أعداء دينيون متعصِّبون لا يَلِيقون إلا لبعضهم البعض! إن التقاذف بالنصوص المقدسة، والاختلاف على تفسيراتها، ليس سوى جدل ديني عقيم، لا يمكن أن ينتهي، ولن يوصلنا إلى أي نتيجة!

لقد كان بمقدور العرب أن يكونوا أكثر نضجاً، وأن يتخلوا عن الخطاب الديني ويسعوا لتعرية تبريرات إسرائيل الدينية. ومع أن هذا لن يحل القضية بمفرده، إلا أنه سيكون ذا فائدة على المستوى الدبلوماسي، بحيث يقوض حجة إسرائيلية كثيراً ما تتكرر. كما سيكون ذا فائدة على صعيد الرأي العام العالمي، بحيث سيُظهِر

لشعوب العالَم مدى سخافة ادعاء الإسرائيليين بأحقيتهم في أرض فلسطين بناءً على مجرد كتابات دينية، وهو الأمر الذي تجاوزه الزمن وأصبح يُنظر إليه على نطاق واسع كعلامة على التخلف والجهل!

العرب أيضاً يُفَوِّتُون على أنفسهم فرصة فضح ظلم الإله اليهودي «يهوه» الذي يزعم أنه مَنَحَ الإسرائيليين أرض فلسطين منذ ما يزيد على ثلاثة آلاف عام! فهذا الإله شرير بالضرورة! فلو فرضنا صحة ادعاء اليهود في كتبهم، فإن الإله قد منحهم الأرض المقدسة، ثم أخرجهم وحرمهم منها لآلاف السنين، وجعلهم يعانون وتضييع حقوقهم بالتقادم. والآن، وبعد كل هذا الزمن، يهيئ هذا الإله الظروف، ويجعل اليهود يعودون لتلك الأرض، ويتسببون في كل هذه الحروب والمآسي والمعاناة التي لا حصر لها، لهم ولمن سكن الأرض من بعدهم! فإن كان أجداد اليهود عَصَوا هذا الإله قبل آلاف السنين، فما ذنب أبناءهم لكي يعانوا طوال هذه المدة؟ وما ذنب سكان فلسطين اليوم، حتى تُنزَع منهم أراضيهم وبيوتهم ويُحارَبون ويُهجَّرون من الأرض؟ لماذا يسمح الإله اليهودي لأجداد الفلسطينيين بأن يسكنوا أرض الميعاد لآلاف السنين، وبعد أن يمتلكوها ويترسخ تاريخهم فيها، يقوم بتسليط "أبناءه وأحباءه" على أحفادهم لكي يطردوهم ويحتلون بيوتهم وأراضيهم[1]! إن كان الإله اليهودي يعلم بكل ما سيحدث وسمح به، فهو ظالم لا يستحق العبادة. وإن كان لا يعلم، فهو جاهل ولا يستحق العبادة. وإن كان يعلم ولم يستطع منعه، فهو عاجز ولا يستحق العبادة أيضاً. لقد كان بمقدور العرب استغلال كل هذا وأكثر لفضح مبررات الغزاة، ولكنهم لا يستطيعون، لأنهم ببساطة يؤمنون ويعبدون هذا الإله اليهودي نفسه!

كان يجدر بالعرب أيضاً رفع مبدأ "عدم محاسبة التاريخ" في وجه إسرائيل. فمن يريد محاسبة التاريخ القديم وإصلاحه بأثر رجعي، فإنه سيتسبب حتماً في

(١) ربما هذا الإله لا يَعُدْ الفلسطينيين بشراً كاملين لهم حقوق، فهم ليسوا من الشعب المقدس وإنما مجرد "جوييم" أو "أغيار"!

كوارث ومظالم أكثر، وسوف يزيد التاريخ سوءاً دون التمكن من إصلاحه. فالتاريخ القديم قد انقضى، ومن كان فيه من ظالمين ومظلومين قد بادوا وانتهوا. بالإضافة إلى أن التاريخ ظني وغير قطعي الدلالة والثبوت، ومحاكمته بناءً على ذلك لا يمكن أن تكون عادلة. وعليه، فعلى البشر الكف عن محاكمة التاريخ، والامتناع عن السعي إلى الانتصاف ممن ظَلَموا فيه. فلو فتحنا هذا الباب فإنه لن ينغلق، وستدلف منه كل الدول والشعوب، فالجميع لديه تاريخ يدَّعي فيه مظلوميته. فهل نقتص اليوم من اليونانيين أو الإيطاليين بسبب مظالم الإسكندر الأكبر أو يوليوس قيصر؟ أم هل نقتص من الفرس لما سببه قورش الكبير من مظالم للميديين؟ إن هذا ليس سوى حماقة، وسيتسبب في نزاعات لا حصر لها، وسيؤدي إلى مظالم جديدة! ولكن العرب لا يستطيعون استخدام هذه المحاججة أيضاً، لأنهم هم بأنفسهم يطالبون بمحاكمة التاريخ! فالفتنة بين الشيعة والسنة ظلت قائمة بينهم حتى الآن بسبب محاكمتهم المستمرة للتاريخ وعدم قدرتهم على تجاوزه، كما أنهم يحلمون باستعادة الأندلس المفقود والهند وغيرها، لأنها أراضٍ إسلامية انتُزِعَت منهم!

وعموماً، وبغض النظر عن تفاصيل وحيثيات الخلاف العربي الإسرائيلي، فإن حشْر العديد من الأنظمة الدينية في المنطقة قد أدى للنتيجة المرجوة، وأصبح لدينا مثلث الشر: السني، الشيعي، اليهودي! وسوف تكون القوى المهيمنة سعيدة لو أصبح هذا المثلث مربعاً بإضافة المسيحية إليه، أو حتى خماسياً وسداسياً إلخ. بعدد الأديان والمذاهب والطوائف في المنطقة!

إن منطقتنا تعاني اليوم من القلق وعدم الطمأنينة. فليس هناك حروب وشيكة، وليس هناك سلام راسخ. إنها حالة من اللاحرب واللاسِلم. الكل خائف ومتوجس ومتحفظ. الكل يعادي "أعداء الله"، ويشعر بالتهديد الخارجي، ويهرع لطلب الدعم من القوى المهيمنة (أو من "الحلفاء" و "الدول الصديقة" بعبارة أخرى)! وتلك القوى تسعى لإبقاء الوضع كما هو: لا عداء عنيف، ولا صداقة حميمة!

والآن، وقد استوطن اليهود في فلسطين وعاشوا لأجيال، وأصبح لهم فيها دولة قوية، فإن جلاءهم قد أصبح صعباً، كما أنه قد يكون ظالماً، خاصة لأولئك الذين لم يكن لهم ذنب في المجيء إلى "إسرائيل"، وقد لِدوا ونشؤوا فيها ولا يعرفون بلداً لهم غيرها. فما هو الحل الأنسب لهكذا معضلة؟ الحل الأنسب هو قيام دولة واحدة، علمانية ديموقراطية ليبرالية، تجمع مواطني فلسطين جميعاً، وتساوي بينهم جميعاً. دولة متحضرة لا يكون فيها مكان للتمييز بين مواطنيها على أساس الدين أو العِرق. دولة متقدمة ومتطورة، تكون أنموذجاً للرفاه والتعايش في هذه المنطقة البئيسة، وتمنح شعوبها أملاً في التغيير والتقدم نحو المستقبل، بدلاً عن انحباسهم في الماضي الذي طال كثيراً.

ولكن هل تقبل الأطراف المعنيّة بهكذا حل؟ الواقع الحالي يقول أنه لن يقبل به أحد! فاليهود والمسلمون أسرى لعقائدهم الدينية، كل طرف يظن أن الإله القوي المتعال يقف في صفه، وسينصره في نهاية المطاف، ويمنحه "الكعكة" كاملة دون أن يشاركه فيها أحد! أما القوى المهيمنة فلن تكون سعيدة بهكذا حل، فهي تريد الحفاظ على الدول الدينية من أجل إبقاء منطقة نفوذها مضطربة على الدوام، مما يعزز استمرارية الهيمنة عليها.

ولكن لنتسلح بالأمل، ونتطلع لمستقبل أفضل. فتراجع المد الديني الذي تشهده منطقتنا حالياً، خاصة بعد فشل الدين في العراق وإيران وخروجه منهزماً من الصحوة والربيع العربي، يمنحنا بعض الفأل في كون الشعوب تسير نحو التعقّل وإدراك الواقع والتعامل معه. ونأمل أن انحسار الدين عند العرب يقابله انحسار مماثل في إسرائيل، لينشأ جيل جديد غير مُحمَّل بأحقاد الماضي ومظالم التاريخ، جيل يضع الإنسان قبل الدين أو الطائفة أو العرق. قد يظن البعض أن هذه أحلام وردية مستحيلة التحقق، ولكنها في الحقيقة ليست كذلك! فمن كان يظن خلال حرب الثلاثين عاماً أن أوروبا ستتوحد؟ بل من كان يظن أن تتصالح فرنسا وألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية؟ وإن ما حصل عند غيرنا قابل للتحقق

عندنا، فنحن جميعاً بشر لا نختلف عن بعضنا البعض. خاصة إذا ما علمنا أن مشكلتنا الكبرى هي الأديان وما تجرُّه علينا من استبداد وفساد. ولقد غدت هذا الأديان ضعيفة اليوم بعد فشل تجربتها وزيادة الوعي بحقيقتها. وإن أي انفراجة حرية تجتاح مجتمعاتنا ستُطيح بآخر حصون الأديان وقِلاعها، لأنها ستكشفها وتعريها تماماً أمام الناس، وتحطهم كبرياءها الموهوم.

وقبل الختام، يجب التنبيه على أن الوضع القائم في الشرق الأوسط لم يكن جميعه نتيجة خطة تآمرية واحدة تم وضعها وتنفيذها بدقة متناهية كما قد يتخيل البعض! إنه وضع تكوّن نتيجة إرادات متصالحة ومتصارعة معاً. نعم، وُجِدَت سياسة لدعم الأنظمة الدينية في المنطقة، ولكن أصحاب هذه السياسة لم يكونوا يعرفون تماماً ما الذي سيحدث. لقد راهنوا على أن الدين سيفسد أكثر مما يصلح، وبالتالي سيجدون الفرصة لاستغلال الأحداث واللعب على الاختلافات والاستفادة من التناقضات لتحقيق مكاسبهم وفرض هيمنتهم. لم يكونوا واثقين تماماً بنجاح ذلك، ولكن يبدو أن مراهنتهم قد كسبت، وأن الدين سمح لهم بجني الكثير من الأرباح وتوسيع نفوذهم وترسيخه حتى الآن!